
قافلة الزيت
شوال ١٣٩٣ - اكتوبر/نوفمبر ١٩٧٣
RECEIVED
QUARTERS LIBRARY
NOV 5 - 1973



الزيت الخام مصدر الطاقة الرئيسي لوسائل النقل الحديثة.
راجع مقال « الزيت أو فوز الحجة » تصوير : بوليتن

بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

العدد العاشر المجلد الحادي والعشرون

محتويات العدد

بحوث أدبية

المنهج الاسلامي في التعليم .... عبد القدوس الأنصاري ٤
أسامة بن منقذ .... محمد عبد الغني حسن ٦
الى زهرة .. (قصيدة) .... طاهر زمخشري ١٨
المنهج النقدي بين العقاد وطه حسين ... محمد أحمد العزب ١٩
السمفونية الريفية (قصة) .... عبد المعطي المسيري ٢٣
همسة في أذني (قصيدة) .... الراحل د. زكي المحاسني ٣٦
أخبار الكتب ٤٢

بحوث علمية

برميل الزيت . . ذو فوائد جمة .... سليمان نصر الله ٢٥
الانسان المعاصر بين العمل والفراغ ....د. زكريا ابراهيم ٣٣
النيازك .. حجارة وفلزات من الفضاء .... محمد العيسى الذكير ٣٧

إستطلاعات مصورة

الزراعة والآلة .... ابراهيم أحمد الشنطي ٩
رندة – مدينة أندلسية تالدة .... محمد عبد الله عنان ٤٣

التعليق على صورة الغلاف

أحد البساتين المنتشرة في ربوع حائل بالمملكة العربية السعودية .
تصوير : علي محمد خليفة .

تصدر شهرياً عن شركة الزيت العربية الامريكية لموظفيها
ادارة العلاقات العامة - توزع مجانا

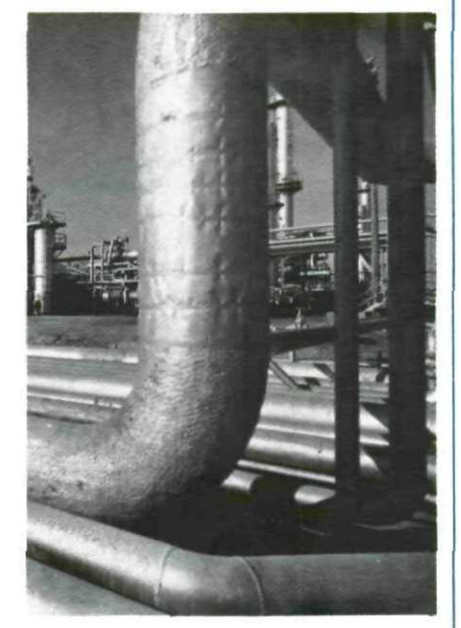
العنوان : صندوق البريد رقم ١٣٨٩ - الظهران - المملكة العربية السعودية

المدير العام : فيصل محمد البسام   المدير المسؤول : عبدالله صالح جمعة
رئيس التحرير : منصور مدني   المحرر المساعد : عوني أبو كشك



يقف هذا المبنى كمثال حي لفن العمارة الاسلامية .

« راجع مقال : رُندة . . مدينة اندلسية تالدة »



يدخل الزيت في صناعة مواد تغليف الانابيب .

« راجع مقال : برميل الزيت . . ذو فوائد جمة »

AL-MUTAWA PRESS CO. DAMMAM, SAUDI ARABIA

عيد مبارك

أعزائي الموظفين

إنه لمن دواعي غبطتي وسروري أن أنتهز فرصة حلول عيد الفطر المبارك لأقدم لزملائي المسلمين من موظفي شركة الزيت العربية الأمريكية ولأفراد عائلاتهم أحر التهاني وأسمى الأماني .

أعاده الله عليهم بالخير والبركات .

وكل عام وأنتم بخير

لستن ف هلز

رئيس مجلس إدارة شركة الزيت العربية الأمريكية

يستقبل المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها عيد الفطر المبارك بالغبطة والبهجة ... ويسر هيئة التحرير أن تنتهز هذه المناسبة الكريمة لترفع إلى جلالة الفيصل المعظم وولي عهده الكريم وإلى المسلمين كافة أخلص التهاني وأطيب التمنيات مبتهلة إلى الله عز وجل أن يعيدهم لأمثاله رافلين في أثواب اليمن والسعادة والرخاء .

وكل عام وأنتم بخير

هيئة التحرير

المنهج الإسلامي في التعليم (١)

بقلم الاستاذ عبد القدوس الانصاري

عالج العلامة عبد الرحمن بن خلدون ، أحد أئمة التربية والتعليم العالميين ، بما سجله في مقدمة كتابه « العبر » في فصل عقده للتعليم ومناهجه الفضلى هذا الموضوع ، وقرر أن المنهج الذي يوصل الطالب الى الغاية المتوخاة ، وهي النجاح في تحصيل الملكة في العلم والأدب هو منهج التعليم المتدرج المتسلسل ، فلا يدرس طالب العلم أي علم ، الا بعد أن يفرغ من العلم الذي قبله ، ولا يدرس كتابا الا بعد فراغه من دراسة الكتاب الذي قبله .

قال : « اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين انما يكون مفيدا اذا كان على التدريج شيئا فشيئا ، وقليلا قليلا » .

والهدف — كما هو واضح — من سلوك المعلم لهذا المنهج ، هو اعطاؤه الطالب « جرعات » متدرجة من التعليم ، يراعى في اعطائها له استعداده وقابليته وسنّه ومداركه ، حتى يجدي فيه التعليم ويثمر بعد نمو فكره نموا متعاقبا متتابع الحلقات ..

وقد نبه ابن خلدون الى خطورة خلط العلوم للطالب دفعة أو دفعات ، فقال : « واذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره ، ويئس من التحصيل ، وهجر العلم والتعليم » (٢) .

وفي المناهج التي عليها العمل في الدول العربية اليوم تخلط العلوم ببعضها ، وتدفع لذهن الطالب كتلا بعد كتل ، وربما كان هذا هو سبب ما يلاحظ من انحطاط فهم الطلاب لمسائل العلوم التي يتلقونها بهذا الشكل المزيج ، مما يجعل السقوط في الامتحانات أمرا مألوفا مكررا . وربما كان ذلك أيضا مدعاة لما يلاحظ من سريان داء التكاسل والملل الى أذهانهم وانصرافهم عن متابعة الدراسة الخاصة المتمثلة في المطالعة ومتابعة سير العلوم بعد أن يكونوا قد تخرجوا وأخذوا الشهادات التي قدّر لهم أن يأخذوها من مدرسة أو معهد أو جامعة ..

وقد أكد « أبو خلدون ساطع الحصريّ » ،وهو أحد أعلام التربية والتعليم المعروفين في العصر الحاضر ، أكد ما ارتآه ابن خلدون وأيده ، حيال الضرر الذي يلحق بطالب العلم من جراء خلط المعلم له علمين فأكثر ..

فقال : « ومن الطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معا .. فانه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما ، لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما بالخيبة . واذا تفرغ الفكر لتعلم ما هو بسبيله مقتصرا عليه ربما كان ذلك أجدر لتحصيله » .

وعاد أبو خلدون ساطع الحصريّ فشرح لنا مزية تلك النظرية التربوية التعليمية التي قررها ابن خلدون عبد الرحمن في خطة التدرج في التعليم .. وهي تشمل بطبيعة الحال عدم مزج العلوم للطالب ، بتقديمها له طبقا بعد طبق ، ودرسا بعد درس ، وعلما بعد علم ، وكتابا بعد كتاب ، لئلا تتأثر نفسيته بكثرة ما قدم له فلا يستطيع ذهنه له هضما بحال من الأحوال ..

يقول ساطع الحصريّ : « ويؤيد ابن خلدون رأيه في القاعدة الأساسية بملاحظات نفسية هامة . فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه ، تنشأ تدريجيا ، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة الا في الأقل ، وعلى سبيل التقريب والاجمال والأمثال الحسية ، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا ، بمخالطة مسائل ذلك الفن وبتكرارها عليه ، والانتقال فيها من التقريب الى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد في التحصيل ، ويحيط هو بمسائل الفن» (٣) .

---

١ — أثار سؤال الأستاذ ابراهيم الفوزان الذي وجهه الي مؤخرا عن حيــاتي الدراسية والأدبية ، فكرة كامنة بين الجوانح منذ أمد : ألا وهي فكرة بحث « المنهج الاسلامي في التعليم » . ٢ — مقدمة ابن خلدون . ٣ — دراسات عن مقدمة ابن خلدون لساطع الحصري .

أفلا ترى أن ساطعا الحصري قد شرح وحلل نظرية ابن خلدون في مزايا التعليم المتدرج ، وخواصه تحليلا علميا واضحا منسجما كشف لنا عن أبعاد عبقرية مقرر هذه النظرية التعليمية أو واضعها على أسس تجاربه ومشاهداته واستنتاجاته ..؟

ولا يكتفي ساطع الحصري بتحليل الجانب الايجابي من نظرية ابن خلدون في المنهج التعليمي المتفرد المتدرج ، بل نراه يتناول أيضا جانبها السلبي بتحليل مركز عميق .. وأعني بالجانب السلبي جانب خلط العلوم ببعض وحشدها في ذهن الطالب بادىء ذي بدء، ثم في شتى مراحل تعليمه . وهذا الخلط هو الوجه الثاني المضاد للمنهج المتدرج ..

يقول ساطع : « ويرى ابن خلدون أن النتائج التي تتولد من اهمال قاعدة التدريج في التعليم لا تنحصر في تصعيب الفهم فقط ، بل تؤدي في الوقت نفسه الى كلال الذهن وتكاسله ، وتستوجب الانحراف عن العلم وهجرانه أيضا » (٤) . وأبو خلدون فيما أوردناه عنه آنفا يؤيد بصراحة قول ابن خلدون عن مضار اتباع الجانب الآخر من مناهج التعليم :

« واذا ألقيت عليه ــ على الطالب ــ الغايات في البداءات ، وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي ، وبعيد عن الاستعداد له كَلَّ ذهنه عنها ، وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه ، فتكاسل عنه أو انحرف عن قبوله ، وتمادى في هجرانه . وانما أتى ذلك من سوء التعليم » (٥) .

واذن فان ابن خلدون يرى أن خلط العلوم ببعض وتقديمها للطالب هكذا مخلوطة متباينة ، هو أمر ذو نتائج سيئة ضارة بمستقبل التعليم ، ويعتبر هذا المنهج الذي نرى مدارس الشرق العربي تسير عليه اليوم ، من سوء التعليم .

والواجب علينا اذن ونحن الآن على مفترق الطرق أن نبحث عن كنوز تراثنا الاسلامي ، وخاصة في قضية التعليم التي هي اللبنة الأولى في صروح تكوين نهضات الأمم .. ونستخرج تلك الكنوز من مكامنها ، ونضعها على محك الدراسة والتحليل ، حتى اذا ثبت صلاحها ، وفضلها على ما تلقفناه من الغرب ، لحاضرنا ومستقبلنا ، التزمنا بتنفيذ مخططاتها وعكفنا على تحسينها وصقلها اذا كانت محتاجة للصقل أو التحسين على مدى الزمن ، وأخذناها بدلا عما كنا ومازلنا نمارسه أو نسير في دربه الملتوي الذي يفضي بنا الى عكس رغباتنا الطامحة الحثيثة ...

واذا كان ابن خلدون قد رأى قبل بضعة قرون أضرار التعليم المزدوج لمستقبل المتعلم ومستقبل التعليم معا وحذر بشدة من ارتكاب مخاطره ، ونص على اعتبار هذا النوع من التعليم سوءا ، فان أبا خلدون ساطعا الحصريّ المعاصر يشد أزر سلفه ابن خلدون عبدالرحمن في هذا الميدان تماما ، اذ يقول معقبا على النظريات السابق ذكرها :

« ويلاحظ أن هذه الآراء والملاحظات قيّمة جدا ، وهي مما أقره علماء التربية في القرن الأخير من حيث العموم » (٦) .

ولا يكتفي « أبو خلدون ساطع الحصري » بالجمل الوجيزة التي قدمناها آنفا حيال دعمه الكلي لنظرية سلفه الامام عبدالرحمن بن خلدون ، بل نراه يضيف الى ما ذكر قوله : « وأما القواعد الأساسية التي يقررها ابن خلدون ، فأولها وأهمها هي هذه القاعدة الجامعة : قاعدة التدرج بالطالب في تدريسه العلوم والفنون والآداب مع التكرار والتوسع المتركز ، ومراعاة عقل المتعلم واستعداده » (٧) .

ويضيف ساطع في دعمه لنظرية ابن خلدون قوله : « ومما يستلفت (٨) النظر بوجه خاص أن ما قرره ابن خلدون في هذه القاعدة الأساسية ــ أي التدرج بالتعليم ــ فنا بعد فن ، وكتابا بعد كتاب ، حتى النهاية ــ يشبه تمام الشبه ، الفكرة الأساسية التي سيطرت على تنظيم الدراسة الابتدائية في فرنسة ، وفي كثير من البلدان الأوروبية منذ أوائل القرن التاسع عشر » (٩) .

وابن خلدون يمتاز في بحوثه بالدقة والاستقصاء . فها هوذا يمدنا بالمدة الزمنية التي كانت ــ على ضوء التعليم المتدرج ــ مقررة لانهاء التعليم العام في شتى مراحله بموطنه « تونس » وبجارة موطنه « المغرب » فيقول لنا : « ان المدة التي كان الطالب يمكثها في التعليم بتونس كانت خمس سنوات ، وذلك لاجادتهم لتطبيق قاعدة التدرج بالتعليم ، وهي في المغرب ست عشرة سنة ، لعدم اجادتهم اذ ذاك لتطبيق قاعدة التدرج التعليمي » .. وينبئنا بأن المدتين : المدة القصيرة في تونس ، والمدة المديدة في المغرب هما قاعدتان لجودة الطالب في التعليم خاصة ، لا فيما سوى ذلك » (١٠) .

هذا ويرى الغزاليّ رأي ابن خلدون ، اذ يشترط على طالب العلم « أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة ، بل يراعي الترتيب ويبتدىء بالأهم ، فان العمر ان كان لا يتسع لجميع العلوم غالبا فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ولا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله ، فان العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا ، وبعضها طريق الى بعض (١١) وكذلك يرى الزرنوجي تماما » (١٢) .

هذا ، وقد لمح الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع في كتابه : « التعليم في المملكة العربية السعودية » الى ما يعانيه التعليم الحاضر من بلبلة واضطراب ، وبدهيّ أن ذلك يثمر المتاعب والسقوط للطلاب في امتحاناتهم السنوية خاصة ، واقترح اعادة النظر في مناهجه لتكون اسلامية وافية بمرام النهوض المنشود ، وقال فيما قال :

« ان مناهجنا الحالية هي مزيج من المناهج القديمة ومناهج بعض البلاد العربية التي تأثرت وفق الظروف آنذاك بالمدرسة الفرنسية وأخرى بالمدرسة الانكليزية .. لهذا كان المنهج مزيجا غير متناسق في أغلب مباحثه وموضوعاته ، وكانت التعديلات التي تطرأ عليه بين حين وآخر محاولات مخلصة ، لتخليصه من هذا الاضطراب » .

فعلى ضوء ما أشار اليه الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع من ناحية اضطراب منهج التعليم وأسبابه ، وعلى ضوء ما تسير هذه البلاد في فلكه من تحفز وتوثب الى الأمام في شتى المجالات ، وخاصة مجال التعليم الذي هو القاعدة الأولى لكل نهوض يراد ، رأيت أن أضع بين يدي رجال البحث والتعليم في بلادنا وفي العالم العربي والاسلامي هذا الموضوع رجاء أن يكون فيه ما يوفض (١٣) بنا الى اقامة منهج اسلامي سليم في التعليم ، بحيث تنمو شجرته ، وتصبح دوحة ضخمة مثمرة بما نرتجيه منها من يانع الثمار وفاخرها .. ■

عبد القدوس الانصاري ــ جدة

٤ ــ دراسات عن مقدمة ابن خلدون لساطع الحصري . ٥ ــ مقدمة ابن خلدون . ٦ ، ٧ ــ دراسات عن مقدمة ابن خلدون لساطع الحصري .
٨ ــ صيغة : « يستلفت » وصيغة « يلفت » كلتاهما لا تؤديان المعنى المراد منهما حديثا ، وهو : « توجيه النظر الى أمر ما » ، بل بالعكس ، فهما تعنيان لغويا : « صرف النظر عن أمر ما » . ٩ ، ١٠ ــ دراسات عن ابن خلدون لساطع الحصري . ١١ ــ إحياء علوم الدين .
١٢ ــ تعليم المتعلم . ١٣ ــ يوفض : يسرع .



الأمير العربي الفارس

بقلم الاستاذ محمد عبد الغني حسن

من الناس من تضيق بهم حياتهم بأقطارها المحددة بالأعمار ، فيوسّعون أقطارها بأعمالهم ومغامراتهم ومخاطراتهم ، ويمدّون آفاقهم بحركتهم التي لا تتوقف ، ونشاطهم الذي لا يتخلف . ومن الناس من يجدون حتى في طول أعمارهم قصرا عن بلوغ آمالهم وادراك مآربهم ، فيعيشون بذكراهم .

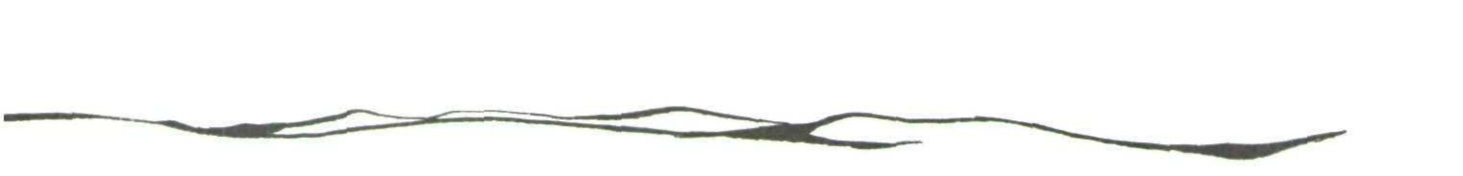
ومن هؤلاء الناس الذين عاشوا الحياة طولا وعرضا ، وكانت لهم من بعد حياتهم ذكرى عطرة الأمير العربي الفارس « أسامة ابن منقذ » الذي عاش ستة وتسعين عاما . لم يملّ خلالها من الحياة ، ولم يسأم تكاليفها ، كما سئمها الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى حين بلغ الثمانين . ولكنه ظل يعب من الحياة عبا ، ويشارك الأحياء في غدوهم ورواحهم ، وفي تعبهم وكفاحهم ، فعاد الى دمشق بعد أن تجاوز التسعين بناء على دعوة من صلاح الدين الأيوبي ، ولم يقعده الوهن واشتعال الرأس بالمشيب عن أن يلقي محاضرات في علم البديع ، ويعطي دروسا في المدرسة الحنفية بدمشق ، ويدون مذكرات عما مرّ به من صور الحياة الحافلة الزاخرة التي عاشها ، يسجلها بيده المرتعشة تارة ، ويمليها على أحد تلاميذه تارة أخرى ، في أسلوب مرسل سهل طيّع ، يجرى مع الطبع بلا تكلف ولا تنميق ، وتواتيه العبارة المعبرة حيثما اتفق ، حتى لقد تصادفه اللفظة الدارجة العامية أو المولدة فيؤثرها على الفصيحة ، ايثارا للتفهيم ، وجريا مع الاستعمال . وقد اجتمع له من تلك المذكرات كتاب برمته ، أسماه « الاعتبار » .

ولو أن كلمة « المذكرات » كانت قد عرفت في ذلك العهد الذي مضى عليه قرابة ثمانمائة عام ، لكان أسمى كتابه بالمذكرات ، كما يفعل كثير من الرجال في زماننا هذا . ولكنه اختار اسم « الاعتبار » ليجعل من تجاربه موضوعا للعبرة ، ومن التجارب التي دونها لغيره مجالا للموعظة .

وعجيب اصرار أسامة بن منقذ على تدوين سيرة حياته وهو حول التسعين . ومع أنه كان شديد الحسرة على ارتعاش تلك اليد التي طالما حطمت القنا في لبّات الأسود ، فإنه ظل دائبا على الكتابة والتدوين ، وان كان يبدي التحسّر لما حلّ به من ضعف واضطراب ، فيقول—وهو شاعر متين الديباجة—في شعر مؤثر حزين :

مع الثمانين عاثَ الدهرُ في جَلَدي
وساءَني ضعفُ رجلي واضطرابُ يدي
اذا كتبتُ فخطّي جِدّ مضطرب
كخطِّ مرتَعِشِ الكفّين ، مرتعد
فاعجَبْ لضعفِ يدي عن حَمْلها قلما
من بعد حطم القنا في لبّة الأسد
وان مشيتُ وفي كفي العصا ثقلت
رجلي ، كأني أخوض الوحل في الجلد

ولعل الأمير العربي الفارس أسامة بن منقذ هو أول مؤلف عربي يكب على كتابة مذكراته ، وتدوين سيرة حياته بتفصيل كثير . ويعدّ كتابه « الاعتبار » أول سيرة ذاتية مفصلة يظفر بها التأليف العربي . وليس معنى هذا أنه أول من ترجم لحياته بنفسه في تاريخ الفكر العربي ، فقد سبقه الى الترجمة الذاتية ابن سينا الفيلسوف المتوفى سنة ٤٢٨هـ ، الذي ترجم لنفسه ، وعرف بأحواله تعريفا اعتمد عليه تلميذه « أبو عبيد الجوزجاني » فيما كتبه عنه وفصله من أحواله . والفرق بين الترجمتين ، أن ابن سينا أوجز في سيرته الذاتية ايجازا أكمله بعده تلميذه أبو عبيد ، وسدّ ثغراته . أما « أسامة بن منقذ » فقد أرسل نفسه على سجيتها في الحديث عن نفسه ، وعن أسرته الكنانية ، وعن ذكرياته ، وعن تقلب الأحوال به . وكأنه ، وهو يكتب أو يملي مذكراته ، كان يستعرض شريطا حافلا بالأحداث فيعيد عرضه على القارىء بتفصيل كثير . والفرق أيضا أن « ابن سينا » كان يترجم لنفسه فقط ، فلم يتجاوزها الى ما يحيط به من أناس ، وعوالم ، وأحداث . أما أسامة فقد ترجم في كتابه لنفسه ولعصره ، ولهذا تخرج من قراءة كتابه « الاعتبار » بصورة واضحة عن القرن السادس الهجري ، بما كان فيه من صراع بين العرب والمسلمين من ناحية ، وبين المسلمين والصليبيين من ناحية أخرى .



ولقد تقرأ كتابا من كتب التاريخ في تلك الفترة الطويلة العريضة التي عاشها أسامة ابن منقذ ، ككتاب ابن الأثير ، وكتاب ابن كثير ، وكتاب « النجوم الزاهرة » للأتابكي ، فترى كثيرا من الأحداث مدونة مسطورة ، ولكنك لا ترى الحياة والحيوية التي جرت فيها تلك الأحداث كما صوّرها قلم « أسامة بن منقذ » في مذكراته . أنه رجل لا يسرد تاريخا ، ولكنه رجل يعايش تاريخا ، ويحياه ، ويحكيه كما أثر فيه وتأثر به .. ومن هنا كانت القيمة الكبرى لهذه السيرة الذاتية التي كتبها أسامة في مذكراته . ولقد شارك « الأمير أسامة » في كثير من أحداث ذلك العصر ، فاتصل بالوزير « معين الدين أنر » القابض على زمام الأمور في دمشق ، ووفد الى مصر في عهد الخليفة الفاطمي « الحافظ » ، واتصل به كما اتصل بالخليفة « الظافر » من بعده ، وشهد الصراع العنيف بين وزراء ذلك العهد الفاطمي ، حتى لقد قيل أنه اتهم بالتحريض على مقتل الوزير « ابن السّلار » ليحل محله في الوزارة ... وعاد أسامة الى دمشق ثانية سنة ٥٤٩هـ ليقضي عشر سنوات في بلاط « نور الدين » البطل الاسلامي المكافح الذي ورث عن أبيه عماد الدين زنكي زعامة المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين . ورحل الى ديار بكر سنة ٥٦٠هـ ليقضي عشر سنوات أخر في كنف الأمير « فخر الدين » صاحب حصن « كيفا » المنيع المشهور ، الذي افتخر بأنه ضم الى بلاطه فارسا عربيا كانت له صلة وثيقة بالبلاط الفاطمي في مصر ، وببلاط نور الدين في الشام ، وله باع طويل في تدبير الممالك ، وسياسة الدول ... ذلك الفارس هو « الأمير العربي أسامة بن منقذ » ... وكانت خاتمة المطاف لهذا الفارس العربي المحنك هي بلاط صلاح الدين الأيوبي ، حيث وفد عليه أسامة بدعوة منه سنة ٥٧٠هـ . وظل في دمشق أربعة عشر عاما ، الى أن أدركته منيته في سنة ٥٨٤هـ .

ويحدثنا أسامة بن منقذ في مذكراته — التي يشتمل عليها كتابه « الاعتبار » ، والتي تحوي أطرف سيرة ذاتية في التأليف العربي — حديثا ممتعا ، مفككك الأوصال ، متنقل الموضوعات ، متنوع الاستطراد ، متعدد الملاحظات ، كأنه جدّ بلغ من الكبر عتيا يتحدث الى بنيه وحفدته . فهو يسوق النادرة تلو النادرة ، والخبر عقب الخبر في استحضار حي للحوادث ، واسترجاع طريف للماضي ، وتصوير زاه للأمس . وكأن كتابه نموذج حيّ لحياته الدافقة النشيطة المتنقلة التي لا يقر لها قرار بين قلعة شيزر قرب حماة ، ودمشق ، والقاهرة ، وديار بكر ، وبيت المقدس ، وهو في كل ذلك لا يتخلى عن الفروسية العربية ، والشجاعة النادرة التي لازمته طول حياته حتى وهو على فراش الموت ، حتى وصفه الأمام « الذهبي » المؤرخ بأنه « أحد أبطال الاسلام » ونعته المؤرخ « ابن الأثير » بأنه « كان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها » . وما ظنكم برجل كان اذا فرغ لحظة من قتال الرجال مال الى مقاتلة السباع . وقد ورث أسامة الصيد عن والده ، كما يقول ، ولم يجد في الصيد لهوا ولا لعبا ، ولكنه وجد فيه جانبا لا يضيعه بعد جانب الله ... وقد افتتح باب أخبار الصيد في مذكراته بقول الشاعر :

لله مني جـانبٌ لا أضيعه
وللهو مني والبطالة جانبُ

ويحكي لنا أسامة في ترجمته الذاتية جوانب شائقة عن خروجه للصيد ، ومشاهدات له مع ملك الأمراء « الأتابكي زنكي » في الموصل ، و « شهاب الدين محمود » في دمشق ، و الخليفة الفاطمي « الحافظ » في مصر ، و الأمير « معين الدين » في عكا ، و الأمير « فخر الدين أرسلان » في حصن كيفا بديار بكر ، و البطل المسلم « نور الدين » في حماه . ومن العجيب أن الأمير الفارس ابن منقذ كان يجمع عند هؤلاء الملوك والأمراء بين تدبير الملك ، وسياسة الحكم ، وترتيب المصائد والمطارد ... ويذكر لنا في آخر كتابه أنه شهد الصيد سبعين سنة من عمره . كما يذكر لنا في موطن آخر — أنه قاتل السباع في عدة مواقف لا يحصيها ، وأنه قتل منها عدة لم يشاركه في قتلها أحد ، وأنه عرف من قتالها وخبر منها ما لم يعرفه غيره .

ولا يذكر أسامه والده في مذكراته الا بكل خير دائما . ويعقد في كتابه



فصلا خاصا بوالده الشديد الولوع بالصيد ، فيقول في مستهله : « ... وذلك أن والدي رحمه الله كان قد فرغ زمانه لتلاوة القرآن والصيام ، والصيد في نهاره . وفي الليل ينسخ كتاب الله تعالى . فكان قد نسخ ستا وأربعين ختمة بخطه رحمه الله ، منها ختمتان بالذهب جميع القرآن . ويركب الى الصيد يوما ويستريح يوما ... »

وعجيب جدا في ترجمة « أسامة بن منقذ » لحياته أنه جمع في آن واحد بين أسباب الجد ، وأسباب المجد ، وأسباب اللهو في نفسه ، على توازن في التقسيم ، واعتدال في النصيب. فلم يطغ فيه جانب اللهو مثلا على جانب الجد ، فهو مثلا يصيد الأسود ، والفهود ، والغزلان ، والدرّاج ، وطيور الماء ، والسمّان ، والأرانب ، والزرازير وغيرها ، ولكنه — في الوقت نفسه — يصيد الرجال والدهاة في المخططات التي كان يدبرها . وهو يقتني غالي الثياب ، ونفيس الجواهر ، وثمين السيوف والسلاح ، وفاره الخيل ، ولكنه — في الوقت نفسه — يقتني مكتبة عامرة بنفائس الكتب ، ويحرص على تجليدها وتذهيبها وتحليتها . ولم يكن يجمع الكتب للمفاخرة والمكاثرة والمباهاة ، شأن كثير من سراة ذلك العهد ، ولكنه كان يقرؤها ويحفظ متونها ، ويعلق على هوامشها . ولما نهب ملك « عكا » الافرنجي المركب الذي سافر عليه أهله وولده من دمياط الى الشام ، حين استقر على العمل ببلاط « نور الدين » ، كان في المركب متاع كثير وكسوات وجواهر وسلاح وسيوف وذهب وفضة ، وخزانة كتب حرص أسامة على أن تنقل اليه في دمشق . وقد نهب ذلك كله ، فما عزّ على أميرنا العربي شيء مثل نهب كتبه ووقوعها في يد الفرنجة . وندعه يعبّر عن ذلك بقوله في مذكراته : « وكنت اذ ذاك — أي حين نهب المركب مع الملك العادل — يعني البطل نور الدين — في بلاد الملك مسعود ، سلطان قونية ، فهون عليّ سلامة أولادي وأولاد أخي . وحرمنا ذهاب من المال . الا ما ذهب لي من الكتب فأنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة . فأن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت .. »

وهكذا كان « أسامة بن منقذ » فارسا ، وشجاعا ، وسياسيا محنكا ، وصيادا ماهرا ، وأديبا ، ومؤلفا عظيما ، وقارئا يحزّ في نفسه ضياع كتبه في ظرف من الظروف .

ولقد أتيح لأسامة أن يعيش على مقربة من الافرنج الذين أسسوا ممالك وامارات مسيحية ببلاد الشام في فترة الغزو الصليبي ، حتى حقق البطل صلاح الدين انتصارات هائلة على الصليبيين وأعاد بيت المقدس الى المسلمين . وكانت المهادنات المتكررة بين العرب والفرنجة في ذلك العهد تهيئ جوا من حسن الجوار بين الطرفين ... وهذا الجو قد أتاح لأميرنا العربي المسلم أن يدرس الافرنج والصليبيين عن كثب . وأن يتعرف الى كثير من أمورهم وطبائعهم ، وأن يتودد اليه بعضهم فيطلب منه أن يأخذ معه ابنه « أبا الفوارس مرهف بن أسامة » الى بلاد الفرنجة « ليبصر الفرسان ، ويتعلم العقل والفروسية » . وهنا يعلّق أسامة بأسلوبه الظريف قائلا : « ... فطرق سمعي كلام لا يخرج من رأس عاقل ! فأن ابني لو أسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه الى بلاد الافرنج ! »

ويلاحظ « أسامة بن منقذ » في باب طريف من مذكراته الممتعة ، كثيرا من طبائع الافرنج النازلين بالشام وأخلاقهم . ويقرر — غير مرة — أن الافرنج الذين تبلدوا — أي أقاموا ببلاد الشام زمنا وعاشروا المسلمين — أصلح وأرق أخلاقا من أولئك القريبي العهد ببلادهم : أي الذين وفدوا حديثا على بلاد الشام . فهؤلاء النازلون حديثا أجفى أخلاقا من النازلين قديما . فكأنّ الاقامة في البيئة العربية المسلمة تهذب من طباعهم ، وترقّق من جفائهم .

وعلى الرغم مما في كتاب « الاعتبار » لأسامة بن منقذ من أحداث صغار وكبار شهدها المؤلف بعينه ، وشارك فيها بنفسه . وعلى الرغم من تصويره الدقيق البديع لملامح كثيرة من المجتمع العربي الاسلامي ، وملامح غير قليلة من المجتمع الافرنجي الصليبي في ذلك العهد ، فان فيه فصلا عن أخبار الصالحين ، وعن التداوي من العلل والاستشفاء من الأدواء بطرق غريبة انساق فيه المؤلف للمعتقدات التي كانت سائدة في عصره ■

محمد عبد الغني حسن — القاهرة

آ لة الحصاد التي تم تطويرها في أواخر القرن التاسع عشر كانت أعجوبة العصر ، ولكنها كانت من الضخامة بحيث احتاجت الى ٣٢ حصانا لجرها .



الزّراعة والآلة

الأرضُ بخيرَاتِها الزِّراعِيّةِ مَصْدَرُ غِذاءٍ وَكِساءٍ للإنْسانِ ، ففي بقاعِها الخِصْبَة يزرعُ الإنسانُ الحُبُوبَ والخُضْرَواتِ والبُقُولَ والفواكِهَ ليتّخذَ مِنْها غِذاءً ، ويَزْرعُ نَباتاتِ القُطنِ والكتّانِ والقنّبِ ليتّخذَ منها كِساءً. وَقد مرّتِ الأساليبُ الزِّراعِيّةُ التي تبنّاها الإنْسانُ بأطوارٍ مُختلفةٍ عبْرَ التّاريخ ، وارتقَتْ تدريجيّاً حتى غدَتِ الزِّراعةُ في المجتمعاتِ الصِّناعيّةِ المُتقدّمةِ آليّةً في مُعظَمِ مجالاتِها.



قد لا يصدق المرء أن تاريخ التقدم الزراعي الهائل الذي أحرزه الانسان على هذه الأرض يعود الى أقل من مئتي سنة خلت ، وذلك عندما بدأ باستغلال مختلف مصادر الطاقة في الأغراض الزراعية .

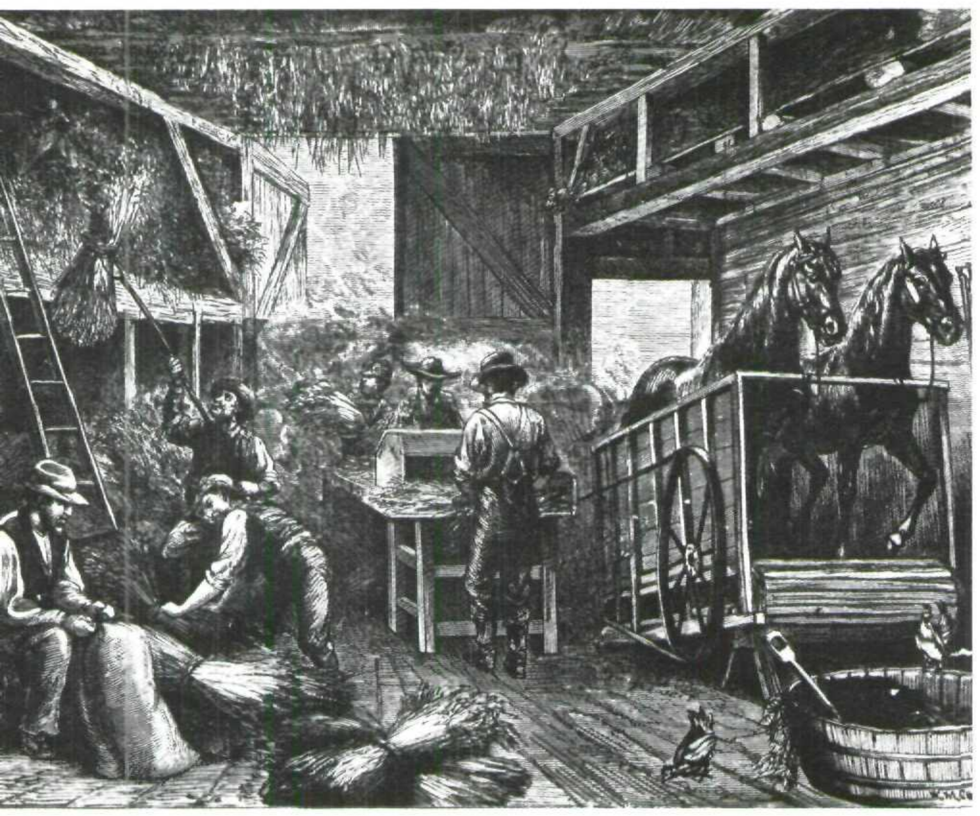
فالانسان ، عندما انتقل من حياة البداوة الى حياة الاستقرار راح يزاول النشاط الزراعي، فاتخذ في بادىء الأمر غصنا من الشجر يشق به الأرض ، كأول اداة زراعية له ، ثم تطور الأمر معه ، وأخذ يشكّل الأدوات حسب حاجته وتجربته ، الى أن أصبحت الآلة اليوم من أهم أسباب التقدم الزراعي في مختلف الأقطار .

الإنسان والحيوان والآلة

ظل الانسان ، عبر العصور المختلفة محدود القوة في صراعه الدائم مع التربة وحاجته الى الطاقة . وظل يعتمد حتى بداية القرن التاسع عشر ، على الأدوات الزراعية البدائية كالفأس ، والمنجل ، والمحراث البسيط يجره بنفسه أو في حالات قليلة تجره الحيوانات .

ثم بدأ أعظم تقدم في تاريخ الزراعة عندما أخذ الانسان باستعمال الطاقات البديلة لطاقته البدنية . واذا جاز لنا أن نسمي القرن التاسع عشر بعصر الطاقة الحيوانية ، وجب علينا أن نطلق على القرن العشرين عصر الطاقة الآلية أو الميكانيكية، وتعتبر مصادر الطاقة الجديدة التي اكتشفها الانسان مع ما حققه من تقدم تكنولوجي باهر ، هي الأسباب الحقيقية وراء التقدم الزراعي الهائل في عصرنا الحديث .

حتى أواخر القرن الثامن عشر ، كان المزارعون في مختلف الأمصار يحرثون الأرض بأدوات زراعية بسيطة كالتي كانت تستخدم في القرون الأولى . وكان استخدام الحيوانات في تلك الأيام مقصورا على ادارة حجر الطاحون ، أو جر محراث بدائي الصنع . وبحلول القرن التاسع عشر بدأت الاختراعات بالظهور وخاصة في مجال الزراعة ، فطرأ على المعدات الزراعية تطور ملحوظ عندما اتجه الانسان الى الانتفاع بالطاقة الحيوانية . فصارت الخيول والبغال والثيران والجواميس تستخدم في جر المحاريث المتطورة وأدوات الفلاحة والزراعة والحصاد . وفي منتصف القرن التاسع عشر أخذ الانسان يستخدم الآلات البخارية في الأغراض ذاتها،غير أن هذه المعدات لم تثبت جدواها الزراعية الا في الأراضي الواسعة المستوية ، أو كمصادر للطاقة الثابتة بدلا من الطواحين التي كانت تدار بالماء أو بالهواء . وبحلول القرن العشرين ظهرت الآلة ذات الاحتراق الداخلي التي قلبت الأوضاع الزراعية رأسا على عقب حيث استعملت لتشغيل المعدات الزراعية المختلفة كالجرارات والحصادات والمحشات وغيرها . وبمرور الزمن أصبحت هذه المعدات على اختلاف أنواعها ومهامها وحدة متكاملة تقوم بمختلف أعمال الحراثة والزراعة والبذر والحصاد وغيرها من الأعمال . وقد ارتفع الانتاج في المزارع تبعا لذلك . ففي عام ١٨٧٠م مثلا ، كان متوسط ما لدى المزارع العامل من طاقة يساوي ١,٦ حصانا آليا ، أما اليوم فقد زادت الطاقة المتوفرة لديه زيادة كبيرة ليس في الدول الصناعية المتقدمة فحسب ، بل في سائر أقطار العالم .



أصبحت عملية درس الحبوب سهلة نسبيا في أواسط القرن الثامن عشر عندما استخدمت الخيول لجر أجهزة الدرس الآلي
رسم للفنان و. م. كاري

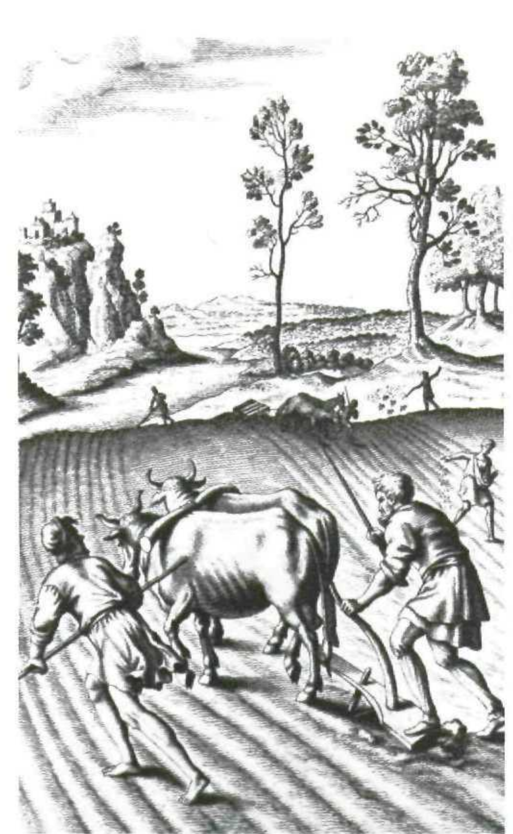
تحضير التربة

تدل النقوش التي عثر عليها في مصر وبلاد ما بين النهرين ، والتي يعود تاريخها ، الى ٦٠٠٠ عام قبل الميلاد ، على أن الانسان كان يستعمل غصنا على شكل « ٧ » لشق الأرض . فكان يضع أحد طرفيه في الأرض ويمسك هو بالطرف الثاني ليجره بنفسه أو يربطه الى قرون البهائم أو أذيالها . ولم يبتكر الانسان الاكليل الذي يوضع على كتفي الدابة وحول عنقها لمساعدتها على الجر الا منذ حوالي ألف سنة . وكذلك ظل المحراث يصنع من الحطب حتى أواخر القرن الثامن عشر وكان محدود الفائدة في قلب الأرض خاصة وأن الأثلام التي يشقها سطحية قليلة العمق .

ثم تطور المحراث الخشبي عندما أدخلت عليه سكة مصنوعة من الحديد يسهل بها شق الأرض الى أعماق أكبر . وأخذ المزارعون باستعمال المحراث ذي السكة بكثرة في الأراضي الرملية والكثيرة الحصى . ومع أن الوحل الذي يعلق بالسكة لدى حرث الأراضي الطينية كان يضطر العامل الى تنظيفه بين الفينة والأخرى ، الا أنه بقي أفضل من سابقه من حيث المتانة والقوة . وبحلول عام ١٨٣٠ أمكن صنع المحراث بكامله من خام الحديد ، وانتشر استعماله في مختلف الأراضي الزراعية . وساعد هذا المحراث الحديث على انتاج محاصيل أوفر من الحبوب وغيرها . وأعقب هذا الحدث تطور سريع ، فصنعت محاريث للواحد منها أكثر من سكة أو نصل،



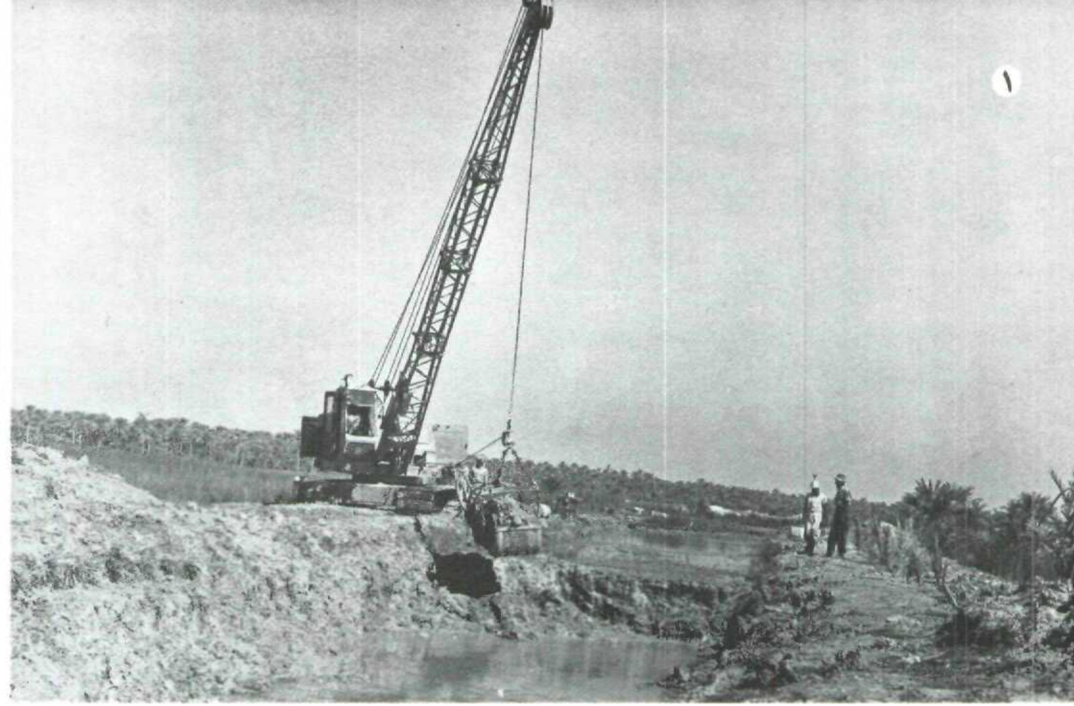
محراث صغير ذو سكة واحدة أخذ ينتشر استعماله في المملكة العربية السعودية .

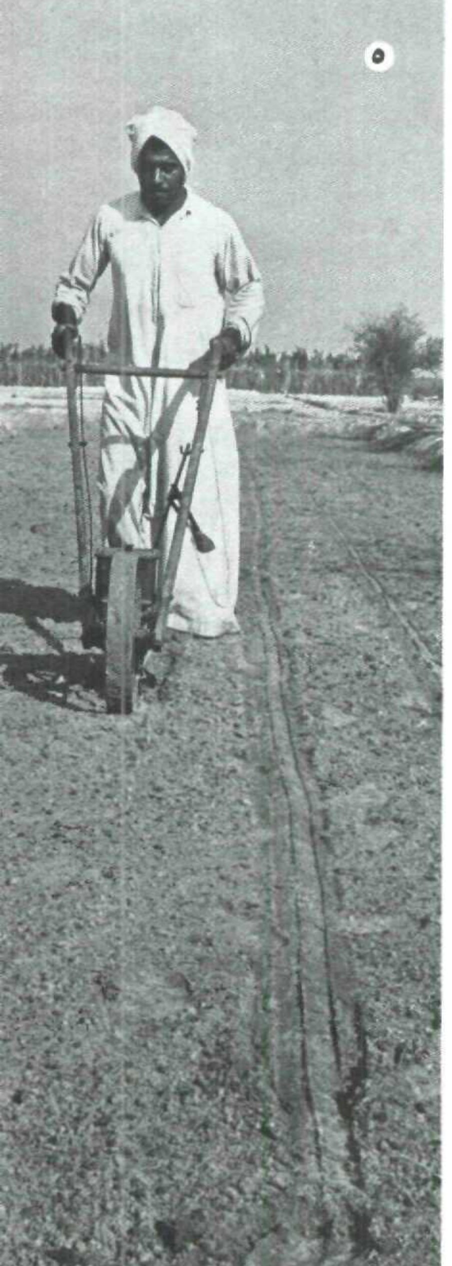


كان شق الأرض وحرثهـا في القرون الوسطى عملية بدائية صرفة ولكن الانسان تعلم كيف يستعيض عن طاقته الجسدية بمصادر الطاقة الأخرى .
لوحة للفنان ونزل هولر

جرارة تستخدم لجر آلات البذر في مشروع حرض الزراعي في المملكة العربية السعودية .
تصوير : ت.ف. والترز









١ – الروافع الثقيلة تستخدم في فتح قنوات الصرف في واحة الاحساء .

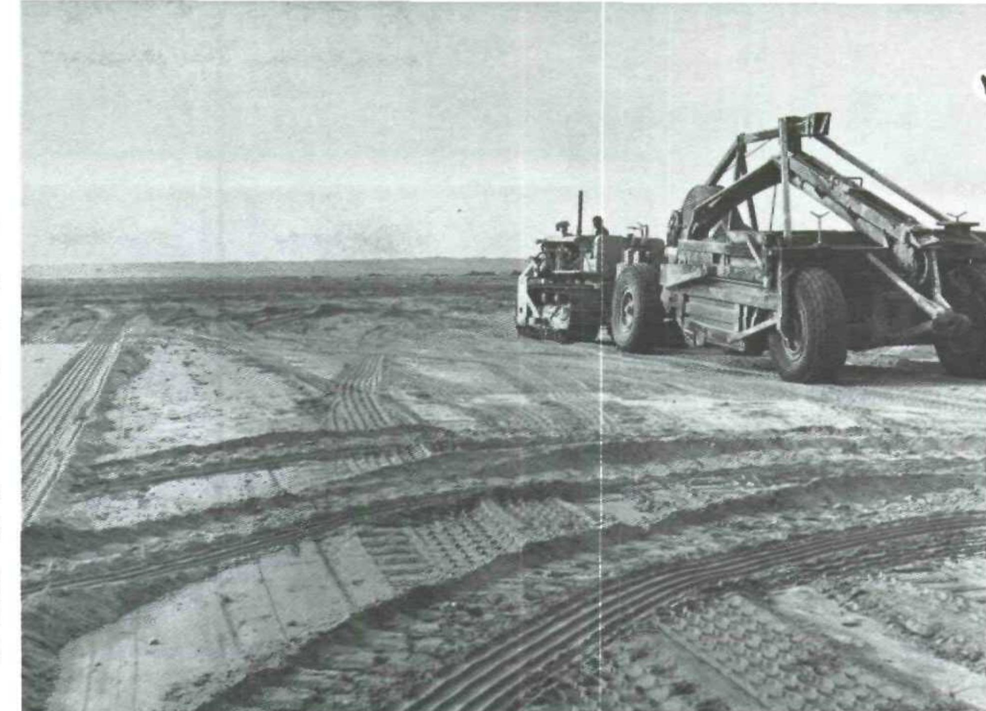
٢ – محراث الصاج من الآلات التي شاع استعمالها في المناطق الزراعية في المملكة العربية السعودية .

٣ – تمهيد الأرض وتهيئتها للزراعة في المملكة العربية السعودية غدا يتم بسرعة بفضل المعدات الضخمة .

٤ – آلة يدوية خفيفة يستعملها المزارعون في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية لاقتلاع الأعشاب الضارة

٥ – عملية بذر الحب تتم الآن باستعمال آلة يدوية صغيرة ، أهم مزاياها توفير البذور والعناء .

٦ – صناعة الجرارات تعطى أولوية خاصة في الهند لأنها تسعى بخطى حثيثة نحو الاكتفاء الذاتي في انتاج الغذاء بفضل الزراعة الآلية .



كما زاد عدد الحيوانات التي تجرها ، ولم يمض طويل وقت حتى حلت الجرارة (التراكتور) محل الحيوانات للمهمة ذاتها . وما أن انتهى القرن التاسع عشر حتى أصبح المحراث ذو الأقراص منتشرا في عدد من البلدان ، وصار لكل نوع من الأرض أو العمل محراث خاص به . وباستعمال وسائل التحكم الهيدروليكي ، التي ظهرت ابان الحرب العالمية الثانية أصبح باستطاعة مشغل الجرارة استبدال الأجهزة أو المعدات التي يريد استعمالها بسهولة ويسر في وقت قصير .

وتبعا لتطور المحراث تطورت كذلك معدات تمهيد الأرض وتسويتها قبيل الزرع . فصنعت في النرويج أجهزة رحوية دوارة وأخرى ذات أطر فولاذية ، كما صنعت معدات بأسنان متفاوتة البعد تفتت الكتل الترابية التي تنتج عن الحراثة العميقة كما تجمع الأعشاب الضارة والحشائش البرية .

زراعة النباتات والعناية بها

صورة المزارع المنعزل عن الناس ، وهو يبذر الحب بيديه في الأرض التي أعدها بالجهد والعرق ، هذه الصورة لا تزال تحتفظ بسماتها وظلالها العميقة حتى يومنا هذا في كثير من بقاع المعمورة . ومع أن الطريقة الآلية الحديثة في عملية بذر الحب كانت معروفة منذ القدم بصورة بدائية في الهند والشرق الأوسط والصين واليابان ، الا أن تلك الطريقة اندثرت مع الزمن ثم عادت الى الظهور ولكن بصورة أكثر فعالية وأوفر عطاء .

ويقال بأن أول جهاز لبذر الحبوب صنع في الصين حوالي عام ٢٨٠٠ قبل الميلاد . كما استخدم جهاز ذو عجلتين ، في ايطاليا ، حوالي عام ١٦٠٠ بعد الميلاد . واستعملت في انجلترا « بذّارات » لنثر الحبوب في أواسط القرن السابع عشر ، كما أعطي أول ترخيص لصنع البذّارات في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٧٩٩ . غير أن البذّارات التي تنظم توزيع الحبوب لم تبتكر الا في حوالي منتصف القرن التاسع عشر . وفي نفس الوقت اخترعت أجهزة ومعدات أخرى تقوم خلال عملية واحدة ، بوضع السماد وطمره ، وبذر الحبوب وتغطيتها بطبقة خفيفة من التراب . وغدت الآلات الزراعية المتعددة الأغراض ، تقوم

بتسميد الأرض وبذر الحبوب في آن واحد في قطاع يربو عرضه على ١٥ مترا .

وخلال السنوات المائة والخمسين الماضية ابتكرت آلات لبذر الحبوب في خطوط متقاربة وعلى أبعاد متساوية بدقة فائقة كما هو الحال في الذرة الصفراء وشمندر السكر والبطاطا وغيرها من النباتات . وقد أصبح بامكان آلة نثر بذور الذرة الصفراء مثلا أن ، تنجز ثمانية خطوط وأكثر في آن واحد كما تقوم ، في الوقت ذاته ، بوضع السماد ورش مبيدات الحشرات للقضاء على الأعشاب البرية الضارة . وقد تم مؤخرا تطوير آلة زراعية قادرة على شق الأثلام ، وري الأرض ، ووضع السماد ، وزرع الأشتال وطمر التراب حولها ، كل ذلك خلال عملية واحدة .

الحصاد

لقد ظل المنجل ، الذي استخدمه المصريون قبل حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، هو أداة الحصاد التقليدية المستعملة عبر آلاف السنين ، وكذا قرينه المحش . وذكر أحد المؤرخين القدامى أن جهاز حصاد ابتكر في القرن الأول للميلاد ، كان عبارة عن منشار حاد مركب



تعتبر آلة جني القطن تحديا صعبا لمهندسي الآلات الزراعية، ولم يبدأ استعمالها بشكل عام الا في الأر
من هذا القرن . ومنها نوع حديث ينتزع القطن من البراعم المتفتحة ويترك المقفلة منها الى جولة أخ
تصوير : بيرن ر.

غدت أعمال الحراثة التي كانت تقصم ظهر العامل عملية سهلة بفضل استخدام الجرارات .
تصوير : شل هرشورن

على عربة يجرها ثور ، ويتحرك المنشار تبعا لحركة عجلات العربة فيحصد السنابل وتسقط في العربة . وبقي الأمر كذلك فيما يتعلق بالحصاد ، فيه الكثير من النصَب والمشقة ، حتى حلول القرن التاسع عشر عندما تم ابتكار معدات أفضل وأسرع .

ولعل الحصّادة تقف على رأس المعدات الزراعية الحديثة فقد طورت بحيث أصبحت تحصد وتجمع وتحزم في عملية واحدة .

وتبعا لتقدم معدات الحصاد تطورت معدات درس الحبوب وفصلها عن قشورها . وقد ظلت عملية الدرس حتى منتصف القرن التاسع عشر تتم بهرس السنابل والكيزان بالأيدي أو بأرجل الحيوانات . وظل الأمر كذلك حتى ابتكرت آلة تجمع بين درس السنابل وفصل القشور عن الحب . ثم تطورت هذه المعدات وأصبحت تقوم بثلاث عمليات في آن واحد فتحصد وتدرس وتفصل الحبوب عن قشورها . وكانت الخيول تستخدم في بادىء الأمر لجر هذه المعدات ثم استخدمت فيما بعد محركات بخارية وتلتها الجرارات . وأصبح بامكان عامل واحد القيام بمختلف أعمال الحصاد ودرس الحبوب . وجدير بالذكر أن تلك



استخدام الآلات الزراعية الصغيرة أخذ يزداد بسرعة في مختلف أقطار العالم .

من الآلات الزراعية الحديثة آلة لجز الحشائش الجافة التي تستعمل غذاء للحيوانات . فهذه الآلة تقص الحشائش وتضغطها في بالات متساوية الأحجام ثم تربطها وتطرحها على الأرض لتجمعها الشاحنات من بعدها . تصوير : نولان تاترسون



آ لة حراثة صغيرة قوتها سبعة أحصنة تستعمل في المزارع المحدودة المساحة .

المعدات قد طورت أصلا لحصد سنابل القمح والشوفان بيد أنها تستعمل اليوم لحصاد وجمع محاصيل الفول والفاصوليا والذرة الصفراء وغيرها . ومن الآلات الزراعية الحديثة المتعددة الأغراض آ لة جمع الذرة الصفراء ، اذ تلتقط الكيزان وتقشرها وتدرسها وتنقيها في عملية واحدة . كذلك آ لة جني القطن التي تجمع وتحزم بمعدل بالة في كل نصف ساعة . وهناك أيضا آلات جني محاصيل البطاطس التي تقتلع النباتات وتستخرج الثمار وتنظفها وتضعها في أكياس ، كل ذلك في وقت واحد .

نظرة إلى المستقبل

ترى ما هو مستقبل الزراعة الآلية ؟ قطعا ستستمر ، فالانسان لن يرفض الأسلوب الآلي الذي تتم به الزراعة ، طالما أنه يسهل العمل ويوفر الجهد ويحقق المطلوب بشكل أفضل ، ويسد حاجة العالم المتزايدة بسرعة الى الغذاء.

غير أن السؤال الحقيقي هو : هل باستطاعة الانسان أن يتعهد مزارعه آ ليا دون أن يؤدي ذلك الى اضطراب أو تفكك في المجتمع الذي يعيش فيه ؟ ففي آسيا مثلا ، يعمل حوالي ثلثي السكان في الزراعة ، كما يعمل فيها أكثر من ٧٠ في المائة من سكان أفريقيا . الاتجاه الى الزراعة الآلية في هذه الأقطار ليس بالمهمة السهلة وخاصة من ناحية الأيدي العاملة التي ستتأثر من جراء ذلك . ولكن الدلائل تشير الى أن التحول الى الآلة في الزراعة يمكن أن يتم دون الحاق ضرر بالمجتمع . ففي الولايات المتحدة الأمريكية مثلا يعمل الآن حوالي عشرة في المائة من السكان في الزراعة . ويسير الاتجاه اليوم نحو تصغير حجم الآلات والمعدات الزراعية . ففي اليابان مثلا ، لا تزال الأسر تمتلك الوحدات الزراعية الصغيرة منذ مئات السنين ولهذا أصبح لا مندوحة من تخفيف عبء العمل الزراعي الشاق عنها بتطوير جرارات صغيرة قوية تستعمل في أغراض متعددة . وقد حذت بلدان زراعية كثيرة حذو اليابان فأخذت تنتج مصانعها آلات زراعية صغيرة قليلة التكلفة تتمكن الأسر الفقيرة من شرائها واستخدامها .

ويستطيع المرء أن يتطلع اليوم الى أفكار جديدة واختراعات فريدة . فقد ابتكر أحدهم مؤخرا جهازا يقوم بأعمال الحراثة دون حاجة لمن يشغله . وهناك تجارب جارية الآن ترمي الى استعمال الماء المستخدم لتبريد الآلات في المصانع ، وهو غالبا ما يكون ساخنا ، وضخه في الأرض تحت النباتات لزيادة محصولها . كما أن محطات تحلية مياه البحر التي يجري الآن تطويرها لتعمل بتكاليف زهيدة قد تصبح ، في المستقبل ، مصدرا يعتمد عليه لري المزروعات فتونع الصحاري القاحلة من بعد جفاف .

والأقمار الصناعية التي أخذت تجوب الفضاء في أيامنا هذه ستغدو أجهزة فعالة لمسح الأراضي الزراعية في مختلف الأقطار والقارات مما يتيح للانسان تخطيط انتاج المحاصيل الزراعية بشكل أفضل في المستقبل . وسوف تكون هناك اختراعات يستطيع الانسان بواسطتها الاستفادة من طاقة الشمس وحرارتها ومن الطاقة الذرية كذلك . ولن يكون الزيت بمنأى عن الافادة منه في الأعمال الزراعية فها هو يستعمل اليوم لتثبيت الرمال والتحكم في نمو الأعشاب البرية والاحتفاظ بالتربة رطبة ندية . وأخيرا هناك الآن فكرة تجول في الأذهان ألا وهي زراعة المحيطات . وهذا يعني أن في امكاننا توقع الكثير من وراء هذه الفكرة فيما لو تنجح التجارب الخاصة بها . وما من شك في أن الفكرة ستحتاج الى أجهزة ومعدات غاية في التعقيد . ومع ذلك فان الانسان دأبه التطلع الى الأمام رائده الحياة الأفضل ■

ابراهيم أحمد الشنطي

عن مجلة (أويل لايف ستريم أوف بروجرس)

إلى زهرة

للشاعر طاهر زمخشري

يا زهْرةً .. غَسلت بالعطرِ أحزاني   والرجعُ ما زالَ قيثاراً لألْحاني
يا زهرةً .. ما لروضِ الحسنِ مبتسماً   مُعنّى بغيرك .. يا صدّاحةَ البانِ
يا زهرةً .. وربيعِي ريّ نضرتِها   وان اكمامها حسّي ووجداني

* * *

ما كنتُ أحسبُ أنّ الدهْرَ يُرْغِمنا   على التباعدِ بينَ اليومِ والثاني
حتى رَمى بي الى كفّ النَوى قدرٌ   قد راشَ سهمَ قضاءٍ منهُ أدْماني
ولفّني بسُهادٍ .. باتَ يُؤرِقني   وفي السهادِ تضمّ الطيفَ عينانِ
والوجدُ عاصفةٌ تغلي بهِ كبدي   وما شكوتُ الجوى الا لكتماني
فإن أبحتُ بما ألقى فمعذرةً   الشوقُ ضاقَ به ستراً فأضناني
يا ليتَ لِي من حمامِ الأيكِ أجنحةً   بها أطيرُ .. بآلامي .. وأحزاني
الى رُباها .. فلي في الدوحِ زَنْبَقةٌ   أنفاسُها كم رَوَتْ إحْسَاسَ وَلْهانِ

* * *

يا زهرةً .. وشَذاهَا كانَ يَغمِرُني   بالطّيبِ روّى نداهُ الخافقَ العاني
ويا نعيماً مع الذكرى مغردةً   بعائدِ الشّوقِ .. والمزمار روحان
العطرُ ما زالَ يروي كلّ جارحةٍ   لولاه ما احْتَمَلَتْ نيران أشجاني
من زهرةٍ .. روضُها روحي وخافقتي   وفي رباها .. تغاريدي ، وأفناني
وما أزال لها أهفو على مقةٍ   ولاهبُ الشوقِ مجدافي ، وسفّاني

* * *

يا زهرةً عطرُها ، في كلّ مفترقٍ   شدوٌ ترقرقهُ بالنورِ عينانِ
قد كنتِ في القربِ أشهى ما كَلِفْتُ به   وقد سقاني الذي أشجى فأرواني
وصرتِ في البعدِ لي رسماً أعانقه   وفي ملامحِهِ رِيٌّ لظمآن
فأنتِ أنتِ وفي الحالَيْن أغنيةٌ   ورجعُها في حنايا القلبِ تحناني
فان سفحتِ دمي من لوعةٍ عصفَتْ   فَقَدْ جرَتْ بدمي المسفوح أجفاني
وانّ قلبي .. متى فاضَ الحنينُ بِهِ   يرفّ كالطيرِ مبتلاً بهتّانِ

* * *

فيا دموعَ الشّجا .. كفي فما ابتردَتْ   نارٌ يضيقُ ببلواها أليفانِ
فما شكوْنا قِلىً يُغري التحولَ بنا   وما هممنا بنسيانٍ وسلوانِ
لكنه قدر أذكى الحريقَ بنا   وأتْرعَ الكأسَ من نأيٍ وحرمانِ

طاهر زمخشري — جدة

المنهج النقدي بين العقاد وطه حسين

بقلم الاستاذ محمد أحمد العزب

في حقولنا الفنية والفكرية انبجس صوت العقاد هادرا كالرعد ، وترقرق صوت طه حسين منغّما كموسيقى الطبيعة في بواكير النهار ، حمل طه حسين معزفه وغنّى ، وانتضى العقاد سيفه وقاتل ، وتناوبا فيما يشبه الحتمية الكونية سيف الفارس ومعزف الفنان ، بمعنى أن العقاد لم يعش حياته الفنية لابسا خوذته ، ولم يعش كذلك طه حسين حياته الفنية مغرّد الأوتار ، فلقد خاض طه حسين في آناء من حياته أشرس معارك الفكر والفن . كما هادن العقاد الكون والجماهير آناء من حياته وغنى للفكر المجرد ، والجماليات الميتافيزيقية ، والقضايا ذات المسوح الكلية غير القابلة بطبيعتها لامكانية التطبيق !! ولكن هذا كله لا يحبط قضية أن العقاد عاش حياته بطلا شاهرا سيفه وممتطيا جواده . وأن طه حسين عاش ويعيش حياته رائدا يقتحم الذرى ويرتاد ليل المجاهيل !!

واذا كنت قد تجاوزت الفنان لأتحدث عن الناقد فيهما معا ، فلأن اسقاط المفاهيم النقدية التي أصّل لها هذان الرائدان بحق على واقعنا الابتكاري والنقدي جميعا هي ما نحن في حاجة لازمة اليه في هذه المرحلة المائرة من مراحل حياتنا الفكرية .

ومن المفيد أن نبدأ بتحديد ملامح القيم النقدية التي تشكل في نهاية الأمر بناء المنهج النقدي لدى كل من العقاد وطه حسين ، فالعقاد يلخص مقاييسه النقدية في هذه الثلاثية :

« أولها : أن الشعر قيمة انسانية وليس بقيمة لسانية » .

« ثانيها : أن القصيدة بنية حية وليست قطعا متناثرة يجمعها اطار واحد » .

« ثالثها : أن الشعر تعبير . وأن الشاعر الذي لا يعبر عن نفسه صانع وليس بذي سليقة انسانية » .

من منطلق هذا التحديد النقدي نستطيع أن نستكشف ملامح الحركة النقدية الشاملة التي قادها ودافع من أجلها العقاد .. فحين يؤسس لقضية أن الشعر قيمة انسانية وليس بقيمة لسانية ، انما يؤسس في الواقع لقضية أن الشعر ليس ترفا عائما في حركة الوجود ، وانما هو صميميّ وجذريّ بما هو أساسا منطق طبائع الأشياء . ان الشاعر حين يدخل مناطق الخلق يحس على الفور أنه يتدامج شيئا فشيئا مع خلايا الكون ، وأنه يتسمّع همسات السرّ في الأشياء ، وأنه يتوافق ويتخالف مع كل قوانين الطبيعة ليخلق قوانين أخرى وطبيعة أخرى كذلك ليست بالضرورة نقيضا لطبيعة الطبيعة ، ولكنها بالضرورة ليست هي الطبيعة !! ان تحديد الشعر بحتمية كونه قيمة انسانية يؤكد في علاقات الجدل بين الشاعر وعالمه كل ما هو منتم الى رؤيا الذات الانسانية المناضلة ، لا الى رؤيا ذاكرة ورائية لاقطة تقيء حصادها البائر في لحظة اختناق .. ان العقاد ينطلق في تقرير هذه القضية –قضية انسانية الشعر– من ايمانه الحتمي بأن الشعر هو بوح الكائن الانساني .

والعقاد –حين يؤسس لقضية أن القصيدة بنية حية وليست قطعا متناثرة يجمعها اطار واحد– انما يضرب ضربته ليس في مجال النقد التقييمي وحده ، وانما في مجالات الابتكار الفني والفكري جميعا ، فلقد عانت القصيدة العربية من تمزقات الشكل والمضمون أجيالا وأحقابا ، ولم تستطع أن تستوعب وحدتها الموضوعية في أيّ من هذه الأحقاب والأجيال . كانت تدور في محاور مفرقة لا يكاد يجمع بينها جامع من حس أو رؤيا أو تناغم في شكول المفرقات . كانت رحلتها تبدأ بالغزل ، ثم تعطف على المدح ، ثم تنحرف الى الاستجداء ، ثم ترتد الى وصف الأشياء والأحياء ، وهكذا تدور وتصيب المتلقي بالدوار .. وليت كل هذه المحاور التي كانت تتقافز فيها



القصيدة العربية تنتهي في آخر الأمر الى وحدة حتى في عاطفة الشاعر المجدد المرهف أو حتى في خياله المزحوم . ان مأساوية هذه القصيدة كانت تنبعث أساسا من كونها عملا بلا تخطيط مسبق ، ذهني .. أو فكري .. أو عاطفي .. أو حتى تلقائي .. انها كانت تولد في فراغات ناضبة من كل حس ، وكانت تنتهي الى فراغات ناضبة من كل تفكير .. وليس هذا بمنسحب على كل الشعر العربي بالطبع . فهناك في هذا التراث الشعري نتوءات عبقرية شامخة الأعراف تجاوزت كل تخوم الزمان والمكان الى حيث عاشت وتعيش في كل العصور.. ولكن هذا لا ينفي أن حركة العقاد كانت مبررة تماما بما هي حركة على بلادة الكل الشامل وليس على فطانة البعض العبقري .

ان الوحدة العضوية التي نادى بها العقاد قد أسيء فهمها كثيرا ، ولذلك فقد حاول العقاد غير مرة أن يرسّخ مفهومها الحقيقي في الأذهان . لقد نادى العقاد بأن ما يقصده بالوحدة العضوية في القصيدة الشعرية أن تكون « وحدة نفسية شعورية وفكرية » .. « لأن الأسلوب الذي يطلبه قارىء يكتفي بالبيت بعد البيت كأنه شيء مستقل عما قبله وبعده غير الأسلوب الذي يطلبه قارىء يحوجه البيت الى تذكر ما سبقه وترقب ما بعده .. فهذا لا يستريح تشوفه الابعد الفراغ من القصيدة. ولا يحكم على أسلوبها الا بنسقها الشامل لأقسامها وأبياتها .. وقد يفي أسلوب الأبيات المفرقة بمطالب نفوس ساذجة تخلو من الخوالج المركّبة والنظرات المتعددة والمعارف التي تتناول الاحساس بالتنويع والتحليل » .. وكذلك لأن « القصيدة ينبغي أن تكون عملا فنيا يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة » .. ونفى العقاد أن يكون قد قصد من الوحدة العضوية أن تستحيل القصيدة الى أحجار جامدة ، أو الى معادلات رياضية صماء فقال : « اننا لا نريد تعقيبا كتعقيب الأقيسة المنطقية ، ولا تقسيما كتقسيم المسائل الرياضية ، وانما نريد أن يشيع الخاطر في القصيدة ولا ينفرد كل بيت بخاطر فتكون بالأشلاء المعلقة أشبه منها بالأعضاء المنسقة » .. ويرجع العقاد مأساوية التمزق في تكتيك البناء العضوي للقصيدة العربية الى اتكال الشعر العربي على الحس فيقول في مقارنة له بين الشعر العربي والشعر الانجليزي : « .. ويدخل في هذا الفرق أيضا دوران الشعر العربي على الحس ودوران الشعر الانجليزي على العطف والخيال ، انك ترى الارتباط قليلا بين معاني القصيدة العربية ، ولا ترى قصيدة انجليزية تخلو من رابطة تجمع بين أبياتها على موضوع واحد أو موضوعات متناسقة ، ومن هنا كانت وحدة الشعر عندنا البيت ، وكانت وحدته عندهم القصيدة ، فالأبيات العربية طفرة بعد طفرة . والأبيات الانجليزية موجة تدخل موجة ، لا تنفصل من التيار المتسلسل الفياض ، وسبب ذلك كما قدمت هو أن الحس لا يربط بين المعاني وانما يربط بينها التصور والعاطفة والملكة الشاعرة ، فاذا تعود الانسان أن يتصور وأن يعطف وأن يشعر تعود أن يدرك المعاني الواسعة والسوانح النفسية التي تتعدد فيها الظلال والجوانب والدرجات ، فيأتي بالفكرة لا يستوعبها البيت ولا يغني فيها الاقتضاب ، واذا هو لم يتعود الا أن ينقل عن الحواس الظاهرة وقف ادراكه على المتفرقات فأغنته طفرة البيت عن تماسك الأبيات » .

الوحدة العضوية التي نادى بها العقاد اذن هي دعوة الى صياغة جديدة وفاهمة للقصيدة العربية ، بحيث تصبح القصيدة العربية وجودا شعريا متلاحما ، وليس مجرد أشلاء ممزقة تتساند عشوائيا في اطار من القافية الضاغطة والايقاع المجهد والخيال الكسيح !!

فاذا انتقلنا الى المحور الثالث من المحاور النقدية لدى العقاد وهو : « أن الشعر تعبير

وأن الشاعر الذي لا يعبر عن نفسه صانع وليس بذي سليقة انسانية » .. عرفنا على الفور الى أي مدى تتكامل محاور البناء النقدي التي يؤسس العقاد لها في أصالة وفهم .. ان الشعر حين يستحيل الى بوق دعائي ، أو شكل بلاغي ، أو جمل موسيقية بلا توتر دافق من الأعماق ، انما يعطي براءة احباطه الفنّي ، فليس تجدي حتى نبالة القضية التي تحملها القصيدة ان كانت القصيدة أساسا قابلة لحمل مثل هذه القضايا . وليس يجدي التصنيع والتجنيس والتشبيه والمقابلات البلاغية في القصيدة ، وليس تجدي الموسيقى حتى ولو استحالت كل القصيدة الى موسيقى من داخل وخارج معا .. ليس يجدى كل أولئك على الاطلاق ما لم يوجد « الشاعر » منذ البدء ، وما لم يحترق هذا الشاعر بلهب ايمانه بكل ما تحمل قصائده من موسيقى وبلاغة وقضايا بلا حدود !! ان الشاعر الذي يغنّي للجماهير الكادحة وهو مسترخ في برج عاجي انما يخون قضية الصدق في كلماته ، انه يقتل كلماته بيديه .. ومن هنا فان حملة العقاد على هذا النمط من أنماط الابداع المجوّف تبدو حملة هادفة وصميمية وغائرة القرار ، ولقد تفجرت من هذه القضية النقدية—قضية الصدق الفني—قضية الدعوة الى « الشخصية » في الشعر يقول العقاد : « الشخصية تعطيك الطبيعة كما تحسها هي لا كما تنقلها بالسماع والمجاورة من أفواه الآخرين . وهذه هي الطبيعة وعليها زيادة جديدة تطلبها أبدا . لأن الحياة والفن على حد سواء موكلان بطلب « الفرد » الجديد أو النموذج الحادث ، أو موكلان بطلب « الخصوص » والامتياز لتعميمه وتثبيته والوصول منه الى خصوص بعد خصوص وامتياز بعد امتياز » . ويقول العقاد كذلك : « وصفوة القول أن المحك الذي لا يخطئ في نقد الشعر هو ارجاعه الى مصدره ، فان كان لا يرجع الى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وان كنت تلمح وراء الحس شعورا حيا ووجدانا تعود اليه المحسوسات فذلك شعر الطبع القوي والحقيقة الجوهرية ، وهناك ما هو أحقر من شعر القشور والطلاء وهو شعر الحواس الضالة والمدارك الزائغة » .. ويقول : « الشاعر الذي لا تعرفه بشعره لا يستحق أن يعرف » !!

هذه هي أبرز المحاور النقدية—على مستوى شعري — في فكر العقاد ، انسانية الشعر .. وعضوية البناء القصيدي .. وصدق التبليغ عن عالم الذات ..

ولكن للعقاد محاور أخرى نقدية على مستويات أخرى فنية وفكرية ، لعل من الجدير هنا أن نقف عندها قليلا ..

فالأدب — كما يرى العقاد — ريادة بالحرية الى الحرية — يقول العقاد : «وكأن الانسان قد أراد بالفن أن يتمم حرية الحياة ، فقد أوجد الفن للانسان أجنحة قبل أن يطير في الهواء وأنشأ لنا في الشعر أجيالا من الأبطال ، وجمع في جسم واحد من رشاقة الأعضاء وملاحة القسمات ما تضن به الحياة على الكثير من الأجسام ، وأصبحنا في عالم حرية لا نصيبها في عالم الحاجة والاضطرار » .. ويقول أيضا : « في الأدب كل ما في الحياة من حاضر ومغيب ، ومن فرائض وآمال ، ومن شعور بالضرورة الى تطلع لحرية المثل العليا » !!

والأدب الفلسفي — كما يرى العقاد — لا يمكن أن يكون واحدا من اثنين : إما مفكرا واما شاعرا .. انه جماع هذين المحورين .. الفكر والشعور : « الحقيقة أن الفكر والخيال والعاطفة ضرورية كلها للفلسفة والشعر مع اختلاف في النسب وتغاير في المقادير ، فلا نعلم فيلسوفا واحدا حقيقا بهذا الاسم كان خلوا من السليقة الشعرية ، ولا شاعرا واحدا يوصف بالاجادة كان خلوا من الفكر الفلسفي » .

والنقد— كما يرى العقاد—ليس مرورا هشا على سطوح الأشكال والأعمال وانما هو اضاءة كل الزوايا ، وتفجير كل الطاقات .. يقول العقاد في هذا الصدد : « النقد الرفيع هو ذلك الذي يهتدي الى النماذج في عالم الآداب والفنون ، وان وظيفته هي احياء كل نموذج يهتدى اليه بمجاوبته واذكاء فضائله وشحذ ملكاته ، ولن يكون الناقد على هذه الصفة الا اذا كان هو نموذجا من الطراز الممتاز لا من الطراز الدارج المألوف » ولا بد للناقد أن يتخذ من علم النفس مرتكزا وسلاحا ، ومن هنا كانت دراسته النفسية لأبي نواس ودراسته لابن الرومي وحياته « من شعره » ..

والجمال — كما يرى العقاد — قيمة تنأى بنفسها حتى تلامس عالم الميتافيزيقا بحثا عن الجميل في ذاته غير منتم الى تشابك الواقع الحيّ وجدله الزاخر بالتناقضات !!

وفي الدراسات الأدبية— كما يرى العقاد— يجب أن نستلهم البيئة لا أن نعكسها ، يجب أن نقف عندها من حيث بواعثها من نفس الفنان ، وليس من حيث كونها واقعا ماديا على الأرض ينبغي أن يستحيل واقعا ماديا على الورق ..

وهكذا .. وهكذا .. ان رحابة المجال الذي تحرك فيه فكر العقاد يعطي أروع المضامين لأروع اقتحام على مستوى فكري وفني في عصرنا الحاضر .

وعلى الشاطئ الآخر من شاطئي حياتنا الفكرية والفنية انبعث صوت الرائد المجدد « طه حسين » ملوّحا للعقاد على شاطئه بما يشبه الراية الحمراء ، بادئين من حركة تمرد ومنتهيين الى حركة تمرد كذلك ، مرد ذلك الى بلادة الواقع النفسي والاجتماعي والفني والفكري . واذا كان العقاد قد ارتفق في رحلته أسسه النقدية الثلاثة .. من انسانية المضمون .. الى وحدة العمل العضوية .. الى صدق المنزع التعبيري .. عناصر لمنهجه النفسي والتحليلي جميعا في مواجهة العمل الفني والفكري .. فان طه حسين قد ارتفق في رحلته هو الآخر أسسا نقدية ثلاثة في مواجهة العمل الفكري والفني كأنما كانا على موعد حتى في حساب الأرقام والأحجام !!

وقبل أن نحدد هذه الأسس النقدية التي ارتفقها طه حسين في رحلته النقدية الشجاعة ، لا بد من الاشارة الخاطفة الى ملامح الواقع النقدي في الفترة السابقة على الحلول النقدي لهذا الرائد الجليل .. كان هناك تيار يقوده الشيخ سيد المرصفي صاحب « الوسيلة الأدبية » .. وكان هذا التيار ينحو بالنقد الى منزع اللغويين والنقاد من قدماء المسلمين .. وكان هناك تيار تقوده الجامعة المصرية التي استقطبت في هذه المرحلة طائفة من الأساتذة المستشرقين ، وكان هذا التيار ينزع بالنقد الى ما يمكن أن يسمى بالنقد الشمولي من حيث كونه نقدا يتكئ في فهمه للعمل وتقييمه للفنان ليس على مجرد مجموعة من قصائد الشعر ولا على طائفة من حياة الشاعر ، وانما على احاطة شاملة باللغة والفن والفلسفة والتاريخ والأدب والمعجم وعلم النفس ومناهج البحث ، وما كتبه الأوربيون في لغاتهم المختلفة عما للعرب من أدب وفلسفة ومن حضارة ودين . وكان هناك تيار نشأ بين هذين مشوها مختلطا كما يقول طه حسين . وهو مذهب العامة من أساتذة الآداب في مدارس مصر .. وكان هذا التيار يتجه نحو

السطحية ، فهو لا يتعمق في القضايا على نحو فلسفي ، وهو لا يحيط بها على نحو مستحدث ، وانما يضرب في « المابين » عاجزا عن الأصالة وقاصرا عن التجديد !!

كان هذا هو المناخ النقدي والأدبي في مصر في مرحلة ما قبل طه حسين ، فلما استوى للرائد أن يقول فيسمع ، أطلق صيحته العارمة بأن هذا الواقع الفكري والفني لا يمكن أن يكون واقعا صحيا ، وخاض معركته الرهيبة داعيا الى انفتاح ثقافي بغير حدود ، انفتاح على الماضي العالمي كله ، وعلى الحاضر العالمي كله ، ليس على مستوى شعري ونقدي فحسب ، وانما على كل المستويات المأمولة والمستطاعة ، حتى يمكن لنا في النهاية أن نصل الى صياغة الناقد الحقيقي ، والفنان الحقيقي كذلك .

وبدأ طه حسين رحلته المثرية على طريق التأصيل للنقد ، فحدد مفهوم الأدب ، ونزل به من آفاق التجريد الى أرض الواقع الجدلي ، فالأدب كما يراه طه حسين « خاضع لكل ما تخضع له الآثار الفنية من تأثر بالبيئة والجماعة والزمان وما الى ذلك من المؤثرات الأخرى ومن تأثير في هذه المؤثرات أيضا ، هو مرآة لنفس صاحبه ، وهو مرآة لعصره وبيئته كلما عظم حظه من الجودة والاتقان ، وهو بحكم هذا متغير متطور قابل للتجديد »..

ومع تلك المقاييس المحددة التي قررها طه حسين ، استعرض في هذا المجال منهج « سانت بيف » الذي يبحث من خلال النص عن الشاعر وأعماقه ، مترقيا من الفرد الى النوع ، من الجزئي الى الكلي ، ومنهج « تين » الذي يبحث من خلال النص عن الفنان ليس من حيث هو ذات مشخصة وانما من حيث هو أثر من آثار العصر والبيئة والجنس..، ومنهج « برونتيير » الذي يخضع النص لعملية النشوء والارتقاء .. كيف ؟ ومن أين ؟ والى أين ؟ ومتى ؟ الى آخر ما يطرح من أسئلة في هذا المجال ..

ويعقب الدكتور طه حسين على ذلك كله بأن الناقد الحقيقي ينبغي له ألا يقف عند واحد من هذه الأنواع . وانما ينبغي له أن يوفق بينها جميعا . وأن يستقطب في عملية النقد عصر الفنان وبيئته وفنه وشخصيته كذلك ، ويضع طه حسين منهجه النقدي أو قل ملامح منهجه النقدي في هذه السطور :

يقول : « إلام تقصد اذا عرضت لشاعر من الشعراء وأردت أن تقرأ شعره وتفهمه ثم تنقده ؟ تقصد فيما أظن الى أشياء :

الأول : أن تصل الى شخصية الشاعر فتفهمها وتحيط بدقائق نفسه ما استطعت ، فتعرف كيف أحس ما أحس . وكيف شعر بما شعر به ، ثم كيف وصف احساسه وأعرب عن شعوره .

والثاني : أن تتخذ هذه الشخصية وما يؤلفها من عواطف وميول وأهواء وسيلة الى فهم العصر الذي عاش فيه الشاعر ، والبيئة التي خضع لها هذا الشاعر ، والجنسية التي نجم منها هذا الشاعر ، فأنت لا تقصد الى فهم الشاعر لنفسه وانما تقصد الى فهم الشاعر من حيث هو صورة من صور الجماعة التي يعيش فيها .

وهنا شيء ثالث تقصد اليه حين تقرأ الشعر وتحاول نقده وهو اللذة .. اللذة الفنية .. اللذة التي تجدها اذا نظرت الى شكل جميل أو استمعت الى قطعة من الموسيقى أو خضعت لمظهر من مظاهر الطبيعة الأخاذة » .

من هذا التحديد النقدي يلوح للدارس أن طه حسين يرجع في تقييمه للفن الى أساسين : الأساس الموضوعي القائم على تفرس ملامح النص وفهمه واستكناه حقائقه ودلالاته وأبعاده . والوقوف الفاهم على نوعية الظروف البيئية والعصرية والجنسية التي أحاطت بهذا النص وألهمته وأثرت فيه .. والأساس التاريخي القائم على محاولة استكشاف موضع هذا النص في خريطة الواقع الابتكاري ، مستعينا في هذا الصدد بكل ما حققته الانسانية من ثمار في شتى المجالات وعبر كل العصور .

واذا كانت القيمة الحقيقية لطه حسين تنبعث أساسا من مغامرته الرائعة في مواجهة « العرف النقدي السائد » على الأقل فيما يتصل بقضية الشعر الجاهلي ، واعتماده المنهج العقلي في معالجته كل القضايا ومواجهة كل البراهين ، فان قيمته الحقيقية كذلك تنبعث بالضرورة من حركة كونه ناقدا على مستوى موضوعي أو قل على مستوى علمي .

ولقد أصّل طه حسين للاتجاه الجمالي الذوقي في النقد ، وللالتزام الحر النابع أساسا من حركة الفنان الذاتية في اتجاه قضية موضوع الالتزام ، وللايمان — في النقد — بالعقل الى جوار الذوق والامتلاك التاريخي للنص ، وللانفتاح القابل على الرأي النقيض مهما اتسعت الشقة بينهما .. وهو في كل أولئك جميعا يتبع منهجا لا يحيد عنه ، وأسلوبا لا يقبل التفريط فيه .. ان منهجه وأسلوبه في كل أولئك جميعا أن يستعرض كل الآراء والاتجاهات ، ثم يخلص هو في النهاية الى رأي قد يكون وسطا وقد يكون مغايرا وقد يكون نقيضا ، ولكنه رأيه هو لا رأي الآخرين . مثلا حين يتصدى للحديث عن موقف المعاصرين من الشعر العربي يعرض لآراء كل الفرقاء ، ثم يلقي بكلماته في النهاية على هذا النحو :

« وخلاصة القول أن لكل شعر جيد ناحيتين مختلفتين ، فهو من ناحية مظهر من مظاهر الجمال الفني المطلق ، وهو من هذه الناحية موجه الى الناس جميعا مؤثر في الناس جميعا ، ولكن بشرط أن يعدوا لفهمه وتذوقه . وهو من ناحية أخرى مرآة تمثل في قوة أو ضعف شخصية الشاعر وبيئته وعصره ، وهو من هذه الناحية متصل بزمانه ومكانه ، ولو قد خلا الشعر من احدى هاتين الخاصيتين لما كانت له قيمة حقيقية ، فهو بخاصيته الأولى مظهر ، كما قلنا ، من مظاهر الجمال الذي تطمح اليه الانسانية كلها ، وهو بهذا صلة قوية بين الشعوب والأجناس مهما تختلف عصورها وبيئاتها . وهو من الناحية الأخرى مصدر من أصدق مصادر التاريخ اذا عرفنا كيف نقرؤه ونفهمه ونخضعه لمناهج البحث العلمي ، فهو يصور لنا حياة الأفراد والجماعات في أزمنتها وأمكنتها المختلفة ، وهو بهذا يمكننا من الموازنة والمقارنة واستخلاص ما يجمع بين الناس من صلة وما يفصل بينهم من فروق » .

وعلى هذا النحو يمضي طه حسين في صوغ نتائجه وقضاياه دالا في كل خطوة من خطواته على أصالة واعية ، واستقلال متفرد ، واقتحام جريء !!

ان مواقف طه حسين الأدبية والفكرية لم تقتصر على ذلك فحسب ، بل تصدى للواقعيين ، فدعا الى أدب حقيقي لا ينحدر باسم الواقعية أو غيرها من المسميات الى منشور دعائي أو الى وصف تسجيلي ، وأصر على أن يقف الأدب في اطاره الحقيقي ، معبرا عن كل فئات الواقع الجدلي ، ولكن من خلال هويته الفنية وليس من خلال حركته التسجيلية المعرقلة لوجود أي من الآداب !! ■

محمد أحمد العزب — القاهرة

قصة قصيرة

السمفونية الريفية

بقلم الاستاذ عبد المعطى المسيري



— حمادة ، حمادة .

— ....

— حمادة ، قم ، قم يا حمادة .

ويتحرك حمادة ببطء وحذر حتى لا تؤذي حركته ذلك الطفل الصغير الذي يقاسمه فراشه ، ثم يعود فيغط ثانية في النوم ، ولكن اليد التي تهزه تمتد ثانية الى كتفه على نحو يحس أن وقعها في نفسه يختلف باختلاف الحال التي تكون عليها أعصابه ، فهو تارة يضيق بها وطورا يطمئن اليها . وهو في هذه المرة أقرب الى السخط منه الى الرضى ، لأنه لم يأخذ حظه من النوم كما ينبغي فقد رجع من عمله بعد انتصاف الليل ، وكانت الليلة شديدة البرودة ، وكانت الريح تعصف بقسوة جعلته لا يتلقف أنفاسه الا بكثير من العناء .

وهدأت الريح بعض الشيء فشرع يتنفس تنفسا عميقا أزاح عن صدره ما ثقل عليه . وسبقه خياله الى بيته ، فأخذ يفكر في غرفته الدافئة التي تشيع فيها الحرارة المنبعثة من أنفاس عديدة ! يستطيع أن يعرف عدد الآدميين : ثلاثة أولاد وامرأة .. أما المخلوقات الأخرى فليس الى حصرها من سبيل ، فهي تتألف من حيوانات وطيور مختلفة ، كالكتاكيت ، وصغار البط ، وما الى ذلك وهي تظل تجري وتتواثب ، وتكر وتفر ، طول النهار ، حتى تضيق بها جوانب الدار ، فاذا جن الليل ، كفّت عن الحركة ، وأخذت تحتل امكنتها فتقنع الكتاكيت بتلك الرقعة الصغيرة التي يشغلها صندوقها تحت السرير ، ويأوي البط الى قفصه تحت النافـذة .. ويسكن الحمام الى منزلـه الخشبي فوق دولاب الكتب !

وخيل لحمادة أنه كان يصغي الى أصوات هذه المخلوقات التي كان ينفر منها ، ثم عاد فراض نفسه على الصبر والاحتمال .. وانتقل من التفكير في ذلك الى جانب آخر من الحجرة حيث تربض منضدة استطاع أن يحيلها الى شبه مكتب .. مكتبه الذي يأنس به فيشعر عند جلوسه اليه أنه أزاح عن نفسه عبئا ثقيلا كان ينوء به .. وراح يعيد الى خاطره لذة

تلك الساعات الحلوة التي قضاها بجوار المكتب بجسمه ، بينما روحه تحلق في أنحاء مختلفة وعصور متفاوتة . ثم جعل يسترجع تلك اللحظات اللذيذة التي كان يحس فيها بأن كائنا آخر يعيش في أعماقه قد انطلق به الى عوالم أخرى ذات رؤى خلابة .

وانتهى الى البيت فطرق الباب ، ثم أعاد يده الى جيبه ليقيها البرد ، وكان لتوقفه عن المشي أثر في شعوره بشدة البرد فتوهم أن زوجه أبطأت ، فعزم عـلى تأنيبها ، ولكن سرعان ما التمس لها عند نفسه العذر .. لماذا لا يجعل للباب مفتاحا حتى لا ينتظر ، ثم لا يزعـج المرأة في مثل هـذا الوقت ، وهذا الجو ؟

وفتح الباب ، ودلف حمادة الى صحن الدار ، والمرأة تتبعه في صمت لا يشوبه الا صوت أسنانها المصطكة .

واحتوتهما الحجرة فشغلت المرأة بتهيئة مصباح الغاز على نحو يتيح له القراءة ، وأخذ هو يبدل ملابسه ، ثم دار ببصره في زوايا الحجرة ، واستقر به نحو الفراش .

وقطعت المرأة حبل الصمت بصوتها الذي يميزه البرد بغنة يطرب لها حمادة ..

قالت وكأنها تتساءل :

— الدنيا برد ؟

فلم يزد صاحبنا على ترديد تلك « الحاءات » التي اعتدنا أن نعبر بها عن شعورنا بالبرد .

وشجعها ما يبديه من تأثر بالبرد ، فعرضت عليه أن يقرأ في الفراش . وراق له هذا الرأي ، فصعد الى السرير وتمدد في حذر حتى لا تلمس أطرافه الباردة ذلك الصغير العزيز الذي يغط في نومه ، ولم يطاوع هزة التأثر التي اعترته أثر رؤيته وجه الطفل ، والتي كانت تلح عليه في تقبيله .. لم يطاوع رغبته خوفا من استيقاظ الطفل ، لأنه يريد أن يقرأ ، واستيقاظ الطفل يفسد عليه الأمر ، ثم هو يريد شيئا آخر يؤثره على القراءة وعلى الأشياء جميعا ، يريد أن يطيل النظر الى وجه الصغير وهو غارق في نومه لينعم بمشاهدة تلك البراءة السمحة ، وليعنى بمراقبة شفتيه وهما تزمان وكأنه يبكي ، وتنفرجان، وكأنه يبتسم ، تلك الحركات اللطيفة التي تصور بصدق قسمات الوجه في حالتي الخوف والاطمئنان .

* * *

بينما كانت المرأة تعنى بنقل المصباح وتعالج تثبيته على مسمار طويل بجانب السرير كان حمادة يعبث بيديه تحت طيات الفراش ليتخير كتابا من هذه الكتب التي يؤثرها والتي يحتال للحصول عليها بشتى الطرق ، ومختلف الوسائل بحيث لا يعيقه عن قراءتها عائق ، ولا يقف في طريقه اليها حائل .

خيّم السكون على الغرفة حيث استسلم الجميع للنوم ، ومضى حمادة في قراءته ، وكان قد نظر في الساعة التي لا تفارق معصمه فوجدها الثانيـة والنصف ، فعزم على أن لا يقطع في القراءة أكثر مـن نصف ساعـة حتى ينهض نشطا ، وليتجنب لوم الطبيب الذي حتم عليه أن يقتصد في القراءة ، وخاصة اذا كان راقدا ، حتى لا يضاعف ألم عينيه . ولكن تلك الصور الرائعة التي تفنن « اندريه جيد » في عرضها في كتابه الانساني « السمفونية الريفية » انسته نصائح الطبيب وصرفته عن النظر مرة أخرى الى الساعة .

وهل يملك أن يفكر في شيء آخر وهو يشاهد أبطال « جيد » وهم يلعبون بمهارة ، ويمثلون المشاعر المختلفة بدقة وبراعة ، كما تتفنن الطبيعة في اسباغ الألوان المتنوعة على الزهور والثمار ؟

هل يملك وقد التقى بالفتاة « جرترود » التي منيت بفقد بصرها ، والتي يلح عليها الكثير من العلل والأمراض أن يشغل بشيء آخر عن تتبعها وهي تتقدم نحو الكمال فتشف أمامها الأشياء وترى ببصيرتها ما يعجز عنه المبصرون ؟

يا لله ! من عهد بعيد لم يسعد حمادة بقراءة شيء له من السلطان عليه مثل ما لهذا الكتاب .

كان أول أمره يقرأ كثيرا ويتأمل قليلا فكان لضيق أفقه ينعم بما لكثير من الكتاب من أفق ضيق محدود ، فلما استقام له أن يقرأ الحيـاة راعه الفرق العظيم بين مـا فيها وما في الكثير من الكتب ، فأفقده ذلك ما كان بينه وبين ما يقرأ من تجاوب . ولم تكن له حيلة في الاقلاع عن الاطلاع ، فكان يقرأ ليجمع الحسرة الى الحسرة ، والخيبة الى الخيبة ، ولم تعد عيناه تنفتحان الا على ساحة عريضة من الحيرة والاضطراب .

وظل أسير تلك الحيرة زمنا طويلا الى أن اعترض طريقه « جيد » فأعادت اليه «السيمفونية» نعيمه المفقود ... نعيم التجاوب بين القارىء وما يقرأ . كما أعادت اليه شعوره بالنشوة والسعة والامتلاء ، فكان لفرط اعجابه بالكتاب ، يتحسر على كل صفحة يطويها ويود لو يطيل عندها الوقوف متأملا فيما يرى من جلال وجمال ، ولكن ايمانه بعبقرية « جيد » كان يضاعف أمله في الصفحة التي تليها الى أن انتهى الى ذلك المكان البديع الذي يقع في طرف الغابة ، والذي وصفته « جرترود » وصفا دقيقا وصورته تصويرا رائعا بقولها :

« تقوم من خلفنا ومن حولنا ، وفوق مستوى رؤوسنا أشجار التنوب الهائلة ذات الطعم المائل الى الصنوبر والسيقان الضاربة الى حمرة الرمان ، والأغصان الطويلة الأفقية السمراء التي تئن كلما هب عليها الهواء وثناها . وينبسط أمامنا ، ككتاب مفتوح ، المرعى الفسيح المخضوضر اللون ، الذي تكسبه الظلال زرقة حين تخيم ، والشمس صفرة حين تبرز . وكلمات هذا الكتاب الجلية البارزة هي أزهار من « كف الذئب » و « شقائق النعمان » ، و « كف السبع » و « زنابق سليمان » .. وفي نهايـة الكتـاب أرى نهرا كبيرا كأنه من لبن تكسوه غلالة رقيقـة مـن البخار والضباب يغطـي هوة هائلـة من الأسرار الغامضة ، وليس له من شاطئ آخر غير جبال الألب الفتانة » .

الى هنا وأغمض حمادة عينيه ، ووضع الكتاب على وجهه وراح يتمثل هذا المكان الرائع وكأنه يعيش فيه .

لم ينتبه ، ولم يرجع من رحلته الخيالية تلك ، الا عند سماعه صوت مؤذن الفجر وهو يقول : « الله أكبر .. » ، وصوت زوجه وهي تصيح به :

— قم يا حمادة .. قم ! ■

بَرْمِيلُ الزَّيْتْ.

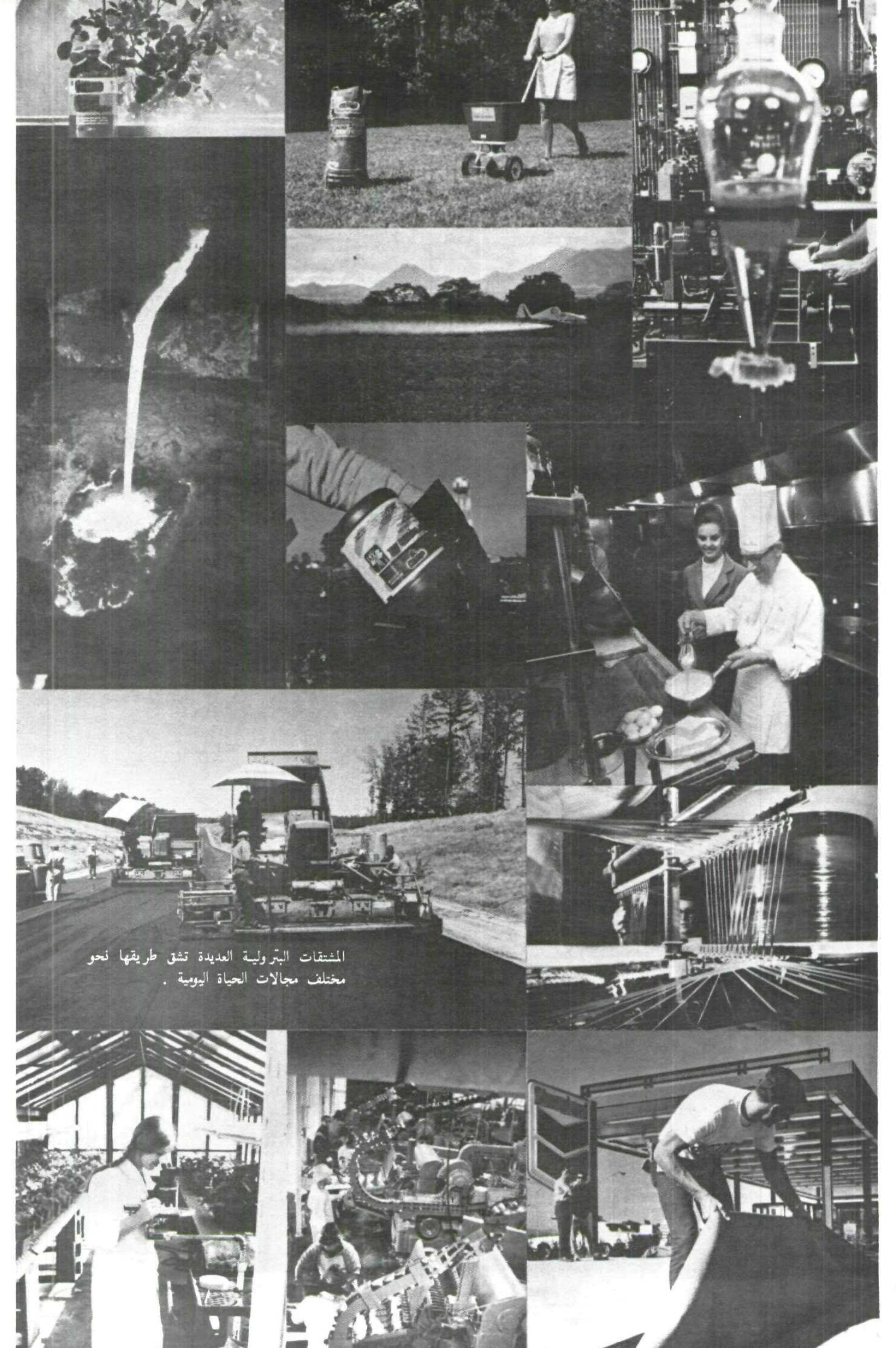


احدى ناقلات البترول الضخمة أثناء شحنها بالزيت الخام من ميناء رأس تنورة البحرية

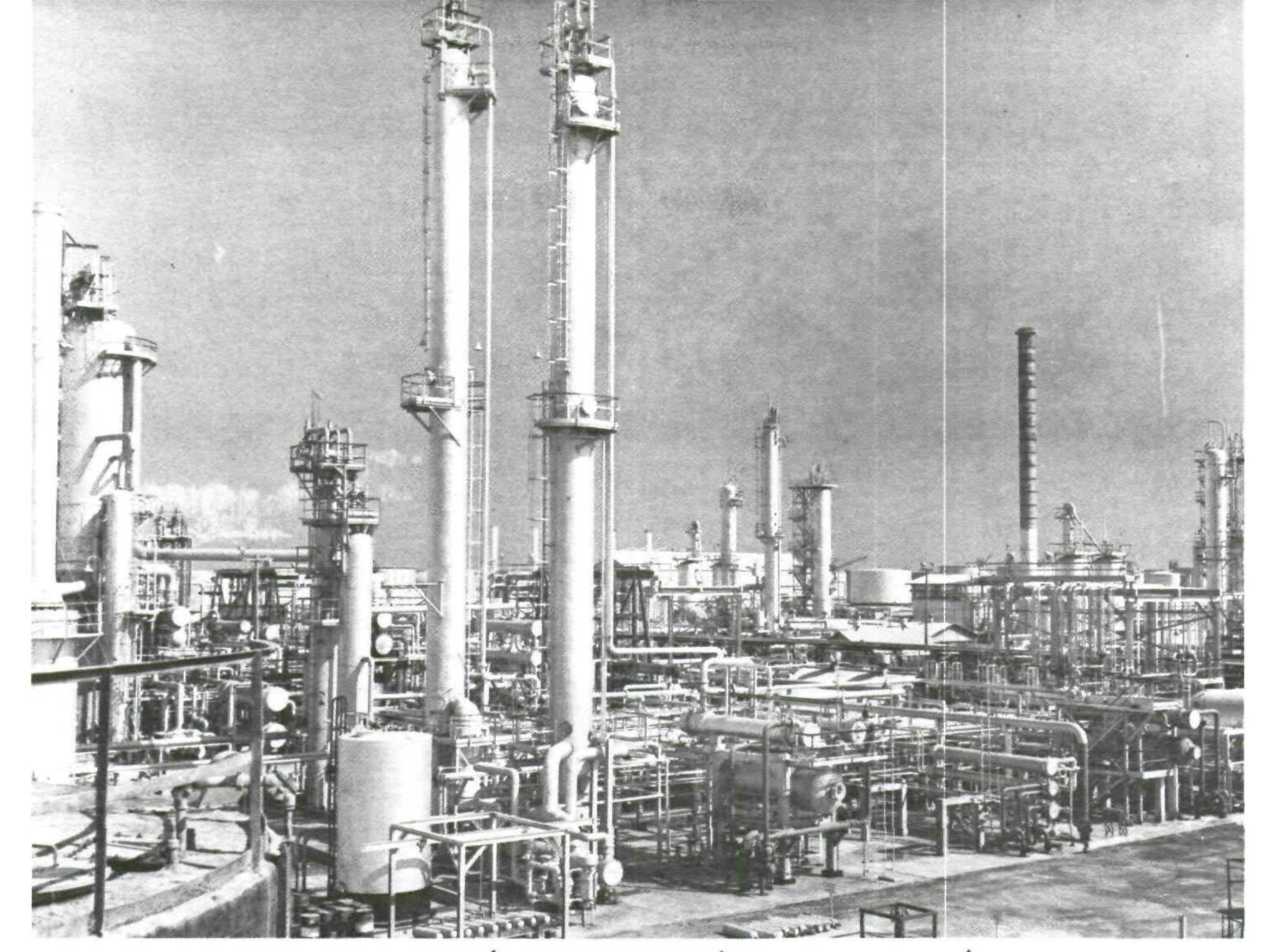


ذو فوائد جمّة

يحتلّ البترول اليوم مركز الصّدارة في جميع أنحاء المعمورة كينبوع هائل للطاقة، فعليه تقوم صروح الصّناعة الشامخة، وبه حقّق الإنسان حلماً طالما راوده عندما وطئت قدماه سطح القمر. ولئن استعمل الزيت منذ القدم في أغراض محدودة، فهو اليوم يستخدم في مناحي شتّى بفضل التقدّم العلميّ والتكنولوجي في مجال تصنيع العديد من مشتقّات الزيت في معامل التكرير. واستحداث آلاف المنتجات عن طريق الصّناعة البتروكيميائية



المشتقات البترولية العديدة تشق طريقها نحو
مختلف مجالات الحياة اليومية .



أحد مرافق معمل التكرير في رأس تنورة حيث يتم تصنيع أنواع مختلفة من الوقود .

إن مصباح علاء الدين السحري الذي كان رهن اشارته وطوع أمره ، يدعوه فيلبي النداء ويأمره فيستجيب ، ويحقق له ما تهفو اليه نفسه من رغبات ومطالب كانت في حد ذاتها أضغاث أحلام تفتقت عنها مخيلات قصّاص الأطفال وناسجو الأساطير ، ذلك المصباح قد تجسد اليوم في البترول ، خادم الانسان ، الذي حقق له في القرن العشرين من منجزات رائعة ومواد كمالية تتضاءل أمامها أحلام علاء الدين وأوهامه .

الانسان والزيت في العصور القديمة

تعود معرفة الانسان بالزيت الى آلاف السنين ، فقد حصل عليه من المنافذ والشقوق الأرضية حيث تسرب عبرها الى السطح ، وتجمع في رقاع صغيرة . وتشير الدلائل والنصوص التاريخية القديمة على أن سكان مصر والعراق وبلاد فارس استخدموا البترول في تشييد الأبنية ورصف الطرق وانارة المعابد . ويعتقد المؤرخون أن المادة التي ورد ذكرها في الكتب المقدسة على أنها استعملت في بناء برج بابل ، وسفينة نوح، وتابوت موسى عليه السلام لم تكن سوى بتومين « اسفلت » طبيعي جلب من مواضع رشوحه . واستعمل المصريون القدماء البترول في تحنيط الموتى ، وغمس أحزمة المومياوات في القار لكيلا تبلى . أما اليونان فقد استعملوه في طلاء عجلات العربات . واستخدمه الملك « نبوخذ نصر » في تعبيد طرق بابل وطلاء شرفات الحدائق المعلقة التي بناها لملكته « اميهيا » وهي أميرة من ميديا ، لكيلا توحشها روابي بلادها الخضر اذا ما أقامت في أرض بابل المنبسطة . هذا وقد استعمل بعض القدماء البترول كدواء يشربونه ويدهنون به الجروح ،ومن هنا ورد اسمه في بعض المصنفات التاريخية باسم « بلسم الأرض ». وأثناء الحرب كانت أطراف السهام تغمس به وتشعل لتقذف فوق أسوار المدن المحاصرة ، شأن « النار الاغريقية » التي استعملها البيزنطيون في الدفاع عن القسطنطينية .

وعرف العرب البترول باسم « النفط » منذ القدم ، فكانوا يطلون به الابل للجرب والدبر والقردان ، يستدل على ذلك من قول امرىء القيس :

أيقتلني وقد شغفتُ فؤادها
كما شغفَ المهنوءةَ الرجلُ الطالي
وماذا عليه أن ذكرتُ أوانساً
كغزلانِ رملٍ في محاريبِ اقيالِ

والمهنوءة هي الناقة التي تطلى بالقطران . وذكر « أبو عبيد » اللغوي النفط على أنه عامة القطران . والنفّاطة هي الموضع الذي يستخرج منه النفط . واشتق منه الفعل « نفط » بمعنى استشاط غضبا ، والقدر « تنفط » اذا غلت وتبجّست . أما عبد الصمد بن المعذل أحد شعراء العصر العباسي فقد ذكره في

عتاب صديق له لتعاليه وتكبره عندما أصبح ناظرا لعين من عيون النفط . وفي هذا دليل واضح على أهمية النفط في ذلك الحين ، رغم الأغراض المحدودة التي كان يستعمل فيها .

معامل التكرير تصنع العجائب

كان النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو بداية صناعة البترول الحديثة ، اذ أخذت هذه الصناعة تتبلور وتزداد مع الأيام أهمية ، سيما وقد شهد ذلك القرن ظهور الآلة ، التي أحدثت تطورا هائلا ، لم يشهد له العالم مثيلا . فكان البترول هو عصب تلك الآلة والمسيّر لها ، بل هو شريان الصناعة الحديثة .

وتلعب معامل التكرير دورا بارزا في تصنيع المنتجات البترولية التي تتطلبها المحركات والآلات على اختلاف أنواعها . وقد مرت عمليات التكرير بمراحل تطويرية متعددة ، وطرأ عليها من التحسينات ما جعلها تساير التقدم الصناعي والتكنولوجي في أدق مظاهره وأبعاده . ولعل من الطريف أن نذكر أن « الكيروسين » كان أهم صنف من منتجات الزيت في فجر الصناعة البترولية ، فكان الهدف الرئيسي من التكرير آنذاك هو أن يستخرج من الزيت الخام أكبر قدر ممكن من الكيروسين بوصفه زيت الاضاءة . أما البنزين فكان يحرق أو يطرح بعيدا باعتباره شيئا غير مرغوب فيه ، وكان البتومين يعتبر شيئا مزعجا لا نفع منه . بيد أن اختراع محرك الاحتراق الداخلي قلب الوضع رأسا على عقب اذ فتح للبنزين باباً واسعا يستعمل فيه ، فأصبح عندها من المنتجات الرئيسية ، وأخذ الطلب يتزايد عليه بشكل كبير ، بالاضافة الى زيوت الوقود ومواد التزييت والتشحيم والاسفلت . ولتأمين حاجة السوق الى البنزين راحت شركات الزيت ومن بينها شركة الزيت العربية الأمريكية « أرامكو » تنتج اكثر من نوع واحد من البنزين لمجاراة التقدم الفني الذي يطرأ على محركات الاحتراق الداخلي والرحوي . ويخضع تصنيع أصناف البنزين الى عمليات مزج وتركيب تتسم بدقة متناهية توازي دقة تركيب الساعات السويسرية أو تركيب غذاء طفل رضيع . ويعالج البنزين بمواد كيميائية من شأنها منع الصدأ من التراكم في جهاز الوقود في السيارة ، وحفظ الصمامات والمكربن خالية من الترسبات الضارة ، وتخفيض غازات العادم التي تسبب تلوث الجو . كما وأن أصناف البنزين تمزج بطريقة يراعى فيها المنطقة التي ستستعمل فيها ، بحيث توفر للسائق الراحة والسهولة في التشغيل أنى ومتى ساق سيارته .

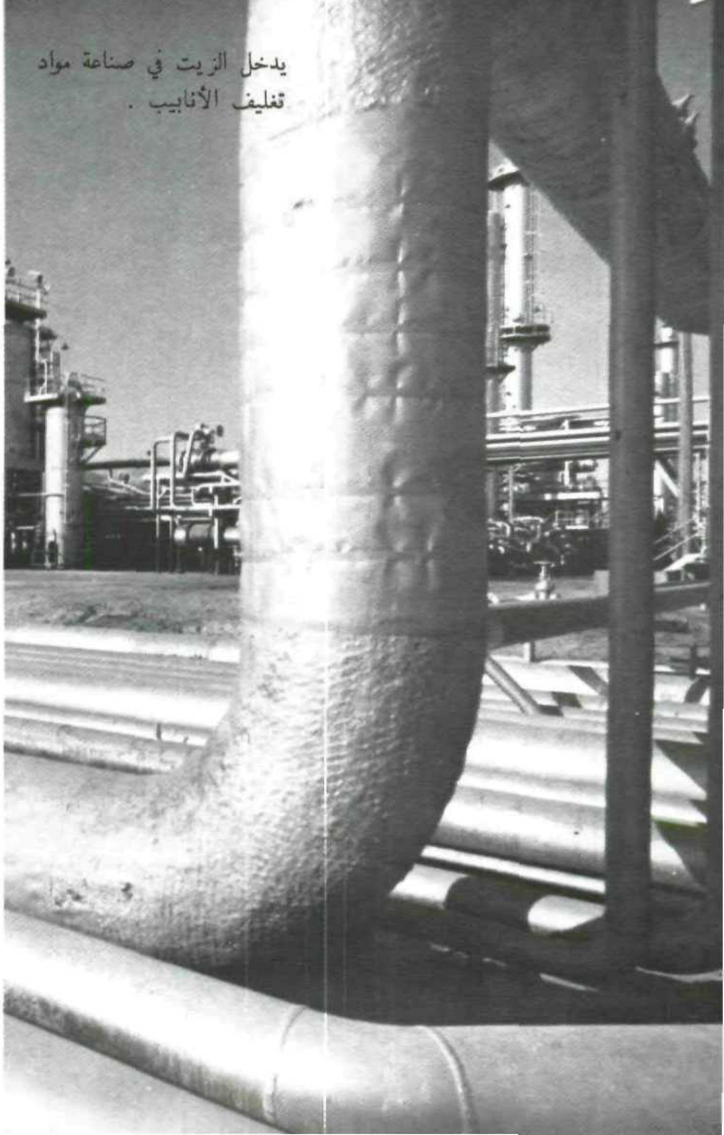
أما محركات ديزل فتستخدم أنواعا متعددة من الوقود تبدأ من المقطرات الخفيفة حتى زيوت الوقود الثقيلة ، تبعا لاختلاف أنواع المحركات التي تستعمل فيها . فزيت الديزل الذي يرش داخل غرفة الاحتراق يشتعل تلقائيا تحت ضغط عال ودرجة حرارة تصل أحيانا الى ألف درجة فارنهايت . ولما كانت محركات ديزل تخلو من المكربنات وصمامات الاشعال فان « محاقن الوقود — Fuel Injectors » فيها ، تكون عرضة للتلف من جراء ما يتراكم عليها من الصدأ والترسبات المعدنية اللزجة التي تحتويها زيوت الوقود . ولذا تلجأ معامل التكرير في تصنيع زيوت الوقود الى اضافة بعض الكيميائيات اليها للحد من تراكم المواد الملوثة .

وفي عالم الطيران أدى ظهور الطائرات الطوربينية الى أن يعود الكيروسين ليحتل مكانة مرموقة بين زيوت الوقود . وجدير بالذكر أن شركة «ستاندرد أوف كاليفورنيا»،وهي احدى الشركات المشاركة في ملكية شركة الزيت العربية الأمريكية « أرامكو » ،كانت الشركة الرائدة في انتاج البنزين الذي استخدم في رحلة الطيران التاريخية التي قام بها « لندبرغ » من نيويورك الى باريس عام ١٩٢٧ ، كما كان للشركة ذاتها قصب السبق عندما انتجت الوقود النفاث ذو الأساس الكيروسيني لأول طائرة

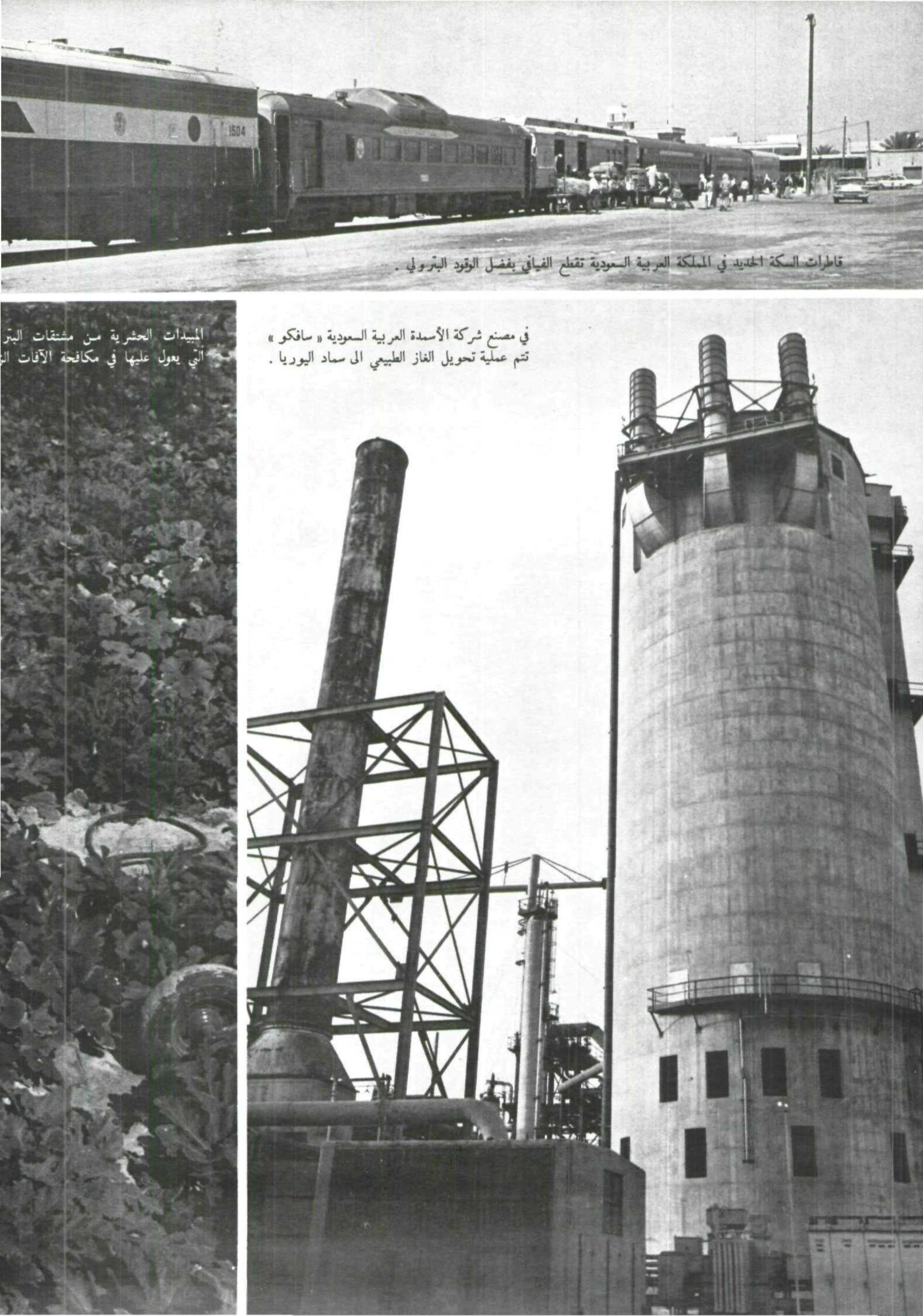
السيارات تتزود بالبنزين من احدى محطات الخدمة في مدينة الخبر بالمملكة العربية السعودية .



مختبرات الزيت تساعد على تحسين
نوعية الوقود لمختلف أنواع الآلات .


يدخل الزيت في صناعة مواد
تغليف الأنابيب .


احدى الطائرات النفاثة تتزود بالوقود في مطار الظهران الدولي .



قاطرات السكة الحديد في المملكة العربية السعودية تقطع الفيافي بفضل الوقود البترولي .

المبيدات الحشرية من مشتقات البتر
التي يعول عليها في مكافحة الآفات الن

في مصنع شركة الأسمدة العربية السعودية « سافكو »
تتم عملية تحويل الغاز الطبيعي الى سماد اليوريا .





نفاثة عام ١٩٤٢ . وتخضع أنواع الكيروسين المستعمل في الطائرات لمراقبة شديدة لتأتي مطابقة لمواصفات دقيقة تتطلبها المحركات الطوربينية النفاثة .

ومن المنتجات البترولية التي تحظى بعناية فائقة مواد التزييت والتشحيم ، نظرا للحاجة الملحة اليها . فهي تحول دون احتكاك السطوح المتحركة بعضها ببعض لتسهيل الحركة . كما أنها تمتص الحرارة المتولدة عن الأجزاء المتحركة وبالتالي تطيل عمرها . ففي العصور القديمة كانت عجلات العربات التي تجرها الجياد تشحم بالودك الحيواني ، أما اليوم مع ازدياد استهلاك مواد التشحيم والتزييت فان البترول يعتبر المصدر الرئيسي لها . ولم يعد استعمال مواد التزييت والتشحيم مقتصرا على درء الحرارة والبلى السريع لأجزاء المحرك ، بل التكيف مع التقلب المفاجئ في درجات الحرارة والضغط الجوي ، وبذلك تحول دون تسرب الرطوبة والغاز الى داخل المحرك لتبقى الأجزاء المتحركة نظيفة وبمنأى عن التآكل . ولكي ندرك مدى أهمية زيت المحرك وقدرته على منع الاحتكاك وتولد الحرارة ، لنا أن نتصور أن طبقة الزيت اللاصقة بجدار أسطوانة المحرك والتي يبلغ سمكها واحد على ألف من البوصة قادرة على منع الاحتكاك بفعالية عالية بين المكابس وسطوح الارتكاز والأجزاء الأخرى التي تتحرك بسرعة فائقة حتى في المناطق الحارة . ولهذا يجرى اعداد زيوت المحركات وفقا لصيغ غاية في الدقة والاتقان لتضمن سهولة التشغيل عندما يكون المحرك باردا ، ومردودا حسنا بالنسبة للتعويض « الميلي — Mileage » عندما يكون المحرك ساخنا .

أما زيت التشحيم فهو في واقع الأمر زيت منتشر في صابون أو مادة هلامية صلصالية تنطلق عند الحاجة الى مقاومة الاحتكاك . وبعض زيوت التشحيم على جانب من الصلابة حتى ليصعب قطعها بالسكين ، وبعضها على جانب من الطراوة حتى ليذوب في درجة الحرارة العادية ، وهذه الشحوم يجري تصنيعها بمواصفات مختلفة لتناسب الأغراض التي تستعمل فيها .

ومن المنتجات البترولية التي تدخل في صنع مواد كثيرة نستعملها في حياتنا اليومية الزيوت البيضاء النقية . فالخباز يستعملها في دهن صواني الخبز ، كما تؤلف الزيوت البيضاء عنصرا أساسيا في كثير من العقاقير الطبية ومستحضرات التجميل .

ومن المنتجات البترولية الأخرى التي تدخل البيوت في أيام الشتاء القارس البرد زيوت التدفئة . وهي عدا عن استعمالها في أغراض التدفئة تستعمل في أعمال الطهو . وقد شاع استعمالها خاصة بعد استحداث المواقد المتقنة الصنع حيث يتبخر الزيت فيها ويحترق احتراقا كاملا لا يتخلف عنه سناج ولا ينطلق منه دخان . ناهيك عن المذيبات والمخففات والشموع التي تدخل في صنع مواد التلميع والصقل والمواد الدبقة . هذا بالاضافة الى البتومين « الاسفلت » الذي يستعمل على نطاق واسع في جميع أنحاء العالم في انشاء الطرق ومدرجات المطارات وفي المباني وتغليف الأنابيب وما شابه ذلك .

المعامل الكيميائية والبترول

ان المنتجات البترولية الآنفة الذكر أمكن الحصول عليها بتكرير الزيت وفصل عناصره الرئيسية بطريقة التقطير المعروفة ، مع اعتماد مبدأ التفاوت في درجات الغليان ودرجات التكثف ، واستخدام الوسيط الكيميائي وغيره . ثم تخضع هذه المنتجات بعد فصل بعضها عن بعض الى عمليات مختلفة لمعالجتها وتحسينها . ولم يقف العلماء والكيميائيون عند تلك المنتجات ، بل عمدوا الى التركيب الذري للمادة الهيدروكربونية التي يتألف منها الزيت والغاز الطبيعي فعالجوها بالتكسير حينا والموالفة بين ذراتها حينا آخر لصنع مركبات كيميائية تعد بالآلاف . وهذا ما يعرف بالصناعة البتروكيميائية ، وهي صناعة حديثة المنشأ نسبيا ، الا أنها أخذت تتطور بسرعة هائلة في العقدين الأخيرين لدرجة أن العلماء لا يستطيعون التكهن بأبعادها وبما ستؤول اليه . ويتعذر على المرء أن يعدد منتجات الصناعة البتروكيميائية لكثرتها ، فمنها على سبيل المثال لا الحصر الأسمدة ، ومبيدات الآفات الزراعية ، والمذيبات ، والمنظفات ، واللدائن ، والأدوية والدهانات ومواد الصيدلة ، ومستحضرات التجميل وحبر المطابع ، وخيوط النسيج الاصطناعية ، والمطاط الاصطناعي وسلسلة طويلة من الكيميائيات التي تستخدم في أغراض متعددة . ولعلنا بعد ذلك ندرك ما يحتويه برميل الزيت الخام من منافع جمة ، حققها للانسانية التقدم العلمي والتكنولوجي في جميع الميادين ■

سليمان نصر الله

تصوير : برنت مودى ، وعلي خليفة ، وسعيد الغامدي ، واحمد منتاخ

الإنسان المعاصر بين العمل والفراغ

بقلم الدكتور زكريا ابراهيم

يصف بعض علماء الاجتماع حضارة الانسان المعاصر فيقولون انها « حضارة العمل » . وليس في وسع أحد أن يزعم أن انسان الأمس قد جهل « العمل » ، ولكن ربما كان الانسان المعاصر – في تاريخ البشرية الطويل – هو الانسان الوحيد الذي يختلط مصيره – أو يكاد – بنشاطه العملي ، حتى ليكاد العمل أن يصبح « قيمة القيم » في الحضارة الغربية المعاصرة ، ان لم نقل في حضارة اليوم كلها شرقا وغربا على السواء .

وقد استطاع الانسان المعاصر عن طريق العمل أن يحيل « العالم الطبيعي » الى « عالم بشري » ، فكانت السيطرة على الطاقة بمثابة عملية « تحرير كامل » للانسان من سائر الضغوط المادية والضرورات الطبيعية . ولا ريب فقد كان اكتشاف سر الطاقة الذرية بمثابة المرحلة الأخيرة من مراحل تحرر الانسان ، وهو التحرر الذي ابتدأ باختراع الآلة البخارية ، ثم كان أن خطا خطوة حاسمة باكتشاف الكهرباء ، الى أن جاء عهد الذرة فانتزع من المادة كل أسرارها . وعلى حين أن أهل القرن التاسع عشر كانوا يرون في العمل الصناعي سيطرة للآلة على الانسان ، أصبح أهل القرن العشرين يعرفون أن « العامل » هو الذي يتحكم الآن في « الآلة » لأنه لم يعد مجرد ترس من تروسها ، بل أصبح منها بمثابة المشرف أو الموجّه لسيرها . وعلى حين أن « تقسيم العمل » – في القرن التاسع عشر – كان بمثابة ظاهرة اقتصادية جوهرية لضمان وفرة الانتاج ورخص السلع ، جاء القرن العشرون فردّ للعامل كرامته ، وأخذ في اعتباره أهمية « العامل البشري » ، مما جعل الكثيرين من رجالات الاقتصاد المعاصرين يرفضون مبدأ « تفتيت العمل » ، ويدعون الى استخدام الآلات المركبة التي تسمح للعامل بتحقيق « العمل » المطلوب ككل . ولا شك أن تقدم التقنية الحديثة ، واستخدام الأجهزة الالكترونية ، قد أعادا الى الانسان مركز الصدارة ، فأصبحت الصناعة الحديثة اليوم تقوم أولا وبالذات على قيمة العمل البشري .

والحق أنه اذا كان ثمة سمة بارزة للحضارة الصناعية المعاصرة ، فتلك هي السمة البشرية التي نلمحها في سعي الانسان المعاصر من أجل تحقيق ضرب من التناغم المتزايد بين « التقنية » من جهة ، و « العنصر البشري » من جهة أخرى . وليست التحسينات المستمرة التي يحاول علماء الاقتصاد المعاصرون ادخالها على المشروعات الصناعية الكبرى سوى مجرد محاولات دائبة من أجل النظر بعين الاعتبار الى « العلاقات البشرية » حتى يستردّ « العمل » أبعاده البشرية والاجتماعية .

فلسفات اليوم و « العمل » ...

وحسبنا – اليوم – أن نلقي نظرة على كتابات الفلاسفة المعاصرين في « العمل » ، لكي نتحقق من أنهم قد أصبحوا يعلون من شأنه ، ويجعلونه مساوقا للحياة نفسها ، ويتحدثون عنه بوصفه مصدرا للمتعة الجمالية ، بل « وينادون بأنه أخ توأم للّعب » ، ويبرزون ما فيه من « عنصر بطولي » والواقع أنه اذا كان بعض الاتجاهات الفكرية القديمة قد نظرت الى « العمل » على أنه « شر » أو « نقمة » ، فان الكثير من الاتجاهات الفكرية المعاصرة قد أصبح يرى فيه « خيرا » أو « نعمة » . دليل ذلك أن « العمل » اليوم قد أصبح تعبيرا عن متعة الروح البشرية في سيطرتها على قوى الطبيعة ، وانتصارها على مقاومة المادة . بل ان بعض المفكرين المعاصرين ليتحدث عن المضمون الجمالي للعمل ، فيقرر أن من شأن الطابع الابتكاري الحر للعمل البشري أن يخلع عليه صبغة جمالية . وعلى حين أن «العمل» – في العصور السابقة – كان يفرض على الانسان فرضا ، أصبح « العامل » في عصرنا الحاضر – خصوصا في بعض المجتمعات الصناعية المتقدمة – هو الذي يختار نوع « العمل » الذي يلائمه ، ومن ثم فقد أصبح للعمل جاذبيته الخاصة بوصفه تعبيرا عن عملية تحقيق الفرد لذاته . وذهب بعض المفكرين المعاصرين الى حد أبعد من ذلك ، فقالوا ان « العمل » هو الذي يشبع ما لدى الانسان من « قوة ارادة » ، فهو – بهذا المعنى – مظهر من أسمى مظاهر النشاط البشري ، ما دام من شأنه أن يشبع منهم الارادة البشرية في سعيها المستمر نحو المزيد من الشعور بالقوة !

أما بعض الباحثين فيربط مبدأ « العمل » بفكرة « الغائية » ، فقالوا أن من بعض أفضال « العمل » على الانسان أنه يوفّر له هذا الشعور بالقصد أو « الغائية » . ويزعم بعض هؤلاء ، أنه ليس المهمّ هو نوع « الهدف » الذي يعمل الانسان على بلوغه ، بل المهمّ هو الطموح نحو هذا الهدف ، كائنا ما كان ! وهم يعنون بذلك أن للنشاط الغائي – في حدّ ذاته – قيمة نفسية كبرى ، لأن من شأن هذا النشاط أن يحقق الترابط بين الأفعال والانفعالات ، كما أنه يعمل في الوقت نفسه على ربط مبدأ « الجهد » بفكرة « السعادة » . ولا شك أن العلماء والمخترعين والفنانين وغيرهم من أصناف « العاملين » ، لم يكونوا يرون في « العمل » مجرد « جهد » يعانون فيه الكثير من مظاهر التعب والنصب والاعياء ، بل هم قد كانوا يجدون فيه أيضا « متعة » ، تقترن بالكثير من مظاهر الغبطة والفرح والسعادة . وهذا هو السرّ في اقتران « العمل » – في نظر كبار العلماء والمخترعين والفنانين المعاصرين – بمعاني الارادة ، والاصرار ، والغائية ، والجهد البطولي وهلم جرا . أجل ، فان أمثال هؤلاء العاملين المبدعين لا يرون في « العمل » ظاهرة ثانوية أو نشاطا هامشيا ، بل هم يعدّونه « جهدا بنّاء » يقومون عن طريقه بتحديد « نسق » حياتهم . ومعنى هذا أن العمل حين يكتسب طابعا بطوليا ، فانه يصبح عندئذ مساوقا للحياة نفسها ، وكأن كل حياة الرجل العامل قد أصبحت بمثابة « مغامرة كبرى » واحدة ! وليس يعنينا – في هذا المقام – أن ندخل في تفاصيل « فلسفة العمل » ، وانما حسبنا أن نقول أن الانسان المعاصر قد أصبح يرى في « العمل » مظهرا لقدرته الابتكارية على تحقيق ذاته ، وبناء حياته ، وتشكيل بيئته ، واسعاد أبناء جنسه ،

وما شاكل ذلك . ولعل هذا هو أحد المعاني التي نعنيها حين نقول عن حضارتنا اليوم أنها « حضارة العمل » .

حضارة العلم والعمل تجاه « التراث الإنساني »

لا يفوتنا أن ننبه الى أن «حضارة العمل»، هي أولا وقبل كل شيء «حضارة العلم» دليل ذلك أن المثل الأعلى الذي تتخذ منه الحضارة صرةالمعا نبراسا لها ، انما هو « سعادة البشرية » . ومعنى هذا أننا اليوم بصدد « نزعة انسانية علمية » ترى في التقدم الصناعي معيارا لنجاحها . ولعل هذا هو السبب في اهتمام القرن العشرين بالتربية العلمية، وحرصه على تزويد النشء بأسلوب علمي في التفكير. وعلى حين أن القدماء كانوا يضعون على رأس موادّ التعليم الفلسفة والأدب، نلاحظ اليوم أن العلوم الطبيعية قد أخذت تحل محل الدراسات الانسانية ، وأن المنهج التجريبي قد أصبح يقوم مقام المنهج الاستنباطي . وبينما كان الأقدمون يضعون « الكون » نفسه تحت أمرة العقل البشري ، ويطبقون على الظواهر الجزئية مجموعة من القوانين العامة ، أصبح المحدثون يقتصرون على ملاحظة الظواهر ، واستقراء الواقع ، من أجل الوصول الى الكشف عن أسرار الكون ، مع الخضوع في الوقت نفسه للقوانين التي يكتشفونها عن طريق المنهج الاستقرائي.

بيد أن « العلم » وان كان يزوّد الانسان بالأسلحة الضرورية اللازمة لمواجهة الطبيعة ، الا أنه يترك الانسان أعزل — أو شبه أعزل — حين يكون عليه أن يواجه مصيره . والحق أن نموذج الانسان الذي يسهم « العلم » في تكوينه انما هو نموذج « الانسان العملي » الذي يأخذ على عاتقه مهمة المضيّ في تحقيق عملية « التقدم المادي » ، دون أن يكون من شأن « العلم » أن يضع تحت أنظارنا غايات أخرى أبعد من ذلك ، أو قيما أخرى تعلو على أمثال هذه القيم المادية . ولا ريب ، فان الانسان حين يقع تحت تأثير العلم ، فانه كثيرا ما ينسى—أو يتناسى—الغاية القصوى التي يهدف اليها من وراء كل نشاط علمي . وهو حين يضل طريقه في وسط العديد من ضروب التخصص ، فانه قد لا يتمكن عندئذ من رؤية الآفاق البعيدة للمشكلات البشرية ومن ثم فقد نراه يتجاهل—أن لم نقل يحتقر— « القيم الكلية » . وهنا يجيء « التراث الانساني » فيذكّر أهل العلوم الطبيعية بأن « حضارة العمل » لا يمكن أن تستغني عن « القيم الانسانية » ، لأنه ليس من حق عصرنا العلمي أن يدير ظهره لتراث الفلاسفة والأدباء وغيرهم من أهل الفكر . صحيح أن أحدا لا يدعو اليوم الى احلال « الانسانيات » محل « العلوم » ، ولكن من المؤكد أن أهل الثقافة العلمية أنفسهم في حاجة ماسّة الى هذه « الروح الانسانية » التي تعلّمهم احترام « القيم الشخصية » وتلقنهم مبادىء الحق والخير والجمال . وحين يدرك أهل العلم أن ثمة مثلا أخلاقيا أعلى ينظم حياتنا ويخلع عليها كل معناها ، فهنالك قد يفطن المتحمسون للتربية العلمية الى أنه لا بد لنا من العمل على صيانة « الشخصية البشرية » ضدّ شعار التقدم الصناعي اللاانساني ، وحماية الحضارة البشرية ضدّ جنون الحياة الآلية المادية . ومهما يكن من سحر الرفاهية الاقتصادية التي تجيء مع حضارة العلم والعمل ، فستبقى الغاية القصوى لكل نشاط بشري هي العمل على مواجهة المصير الانساني عن طريق تحقيق المزيد من ضروب التفتح ، والنضج النفسي ، والتكامل الاجتماعي .

هل أخذ « عصر العمل » يتحوّل الى « عصر فراغ » ؟

مما تقدم يتبين لنا أن خط سير الحضارة الغربية الراهنة هو الذي أصبح يميل بها نحو « نزعة علمية انسانية » ، تحقق من جهة نمو الروح العلمية ، فتعمل على تثبيت دعائم حضارة العمل ، وتستبقي من جهة أخرى تراث الثقافة الكلاسيكية ، فتوجّه حضارة العمل في اتجاه التقدم البشري الصحيح . ولو كان لنا أن نأخذ بالتفرقة السقراطية المعروفة ، لكان في وسعنا أن نقول أن من شأن « العلوم » أن تعرّفنا ما هو « الحق » ، في حين أن « الآداب » تكشف لنا عما هو « خير » . وحين ينضاف الوعي بالذات الى المعرفة العلمية ، فهنالك يمكن للوسائل التكنولوجية أن تصبح عونا على تحقيق « الترقي البشري » أو « التسامي الانساني » .

وهكذا نرى أن انتصار « العمل » قد اكتمل : فان « العمل » لم يعد يتحكم في كل نبضات عصرنا اجتماعيّا ، واقتصاديا ، وسياسيا ، فحسب ، بل هو قد أصبح أيضا ينظم كل جهازنا الثقافي . ولكنّ في استطاعتنا مع ذلك أن نتساءل عما اذا كان الحال سيدوم على هذا المنوال ، أو كان « عصر العمل » نفسه قد أخذ يتدهور أو قد شرع بالفعل في الزوال ! ألسنا نلاحظ أن البشرية قد أخذت تنجح في التحرر تدريجيا من « العمل » نفسه لكي تستعيض عنه بـ « الفراغ »؟ ألا نجد لدى بعض علماء الاجتماع المعاصرين اتجاها واضحا نحو استرداد « القيمة » التي كانوا يخلعونها على « العمل » من أجل خلعها على الضد المقابل لـه ألا وهو « الفراغ » ؟ فهل نقول أن « عصر العمل » قد أخذ يتحول الى « عصر فراغ » ؟

اننا لو ألقينا نظرة فاحصة على المجتمع الصناعي المعاصر ، لوجدنا أن التقدم التكنولوجي قد أدى من جهة الى تقليل ساعات العمل ، كما عمل من جهة أخرى على رفع مستوى المعيشة . والواقع أن هذا التقدم قد سلب « العمل » جانبا غير قليل من الوقت الذي كان مخصصا له ، كما أنه في الوقت نفسه قد وفر للعامل الكثير من الوسائط الهامة التي تتزايد يوما بعد يوم ، من أجل تخصيص هذا الوقت الزائد للفراغ . وعلى حين كان العامل منذ نحو قرن واحد من الزمان يشتغل أسبوعيا حوالي ٩٠ ساعة ، أصبح اليوم لا يعمل سوى حوالي ٤٠ ساعة في الأسبوع فقط ، كما أن كل عامل قد أصبح يتمتع بعطلة سنوية مجزية .

ولما كانت زيادة الانتاج—في المجتمعات الصناعية الكبرى—لا يمكن أن تستمر دون تزايد مماثل في الاستهلاك ، فقد أصبح « الفراغ » ضرورة اقتصادية كبرى ، نظرا لأن من شأنه أن يولد باستمرار حاجات متجدّدة .

وهذه الظاهرة الاقتصادية الحديثة التي تحيل « الفراغ » الى ضرب من الواجب الاجتماعي ، انما تتجلى بصفة خاصة في المجتمعات الغنية ، حيث يسود الرخاء الاقتصادي .

العمل والفراغ بين الضرورة والحرية

اذا كان « الفراغ » قد أصبح—أو كاد يصبح—ضرورة اقتصادية ، فهل يعني ذلك أنه سوف يقوم في المستقبل القريب مقام « العمل » ؟ أليس هناك بون شاسع بين حياة عابثة لا تكاد تخلق عالما حتى تعمد الى هدمه ، وحياة ملتزمة تصارع على الدوام ضدّ بعض العوائق الحقيقية ، من أجل تهيئة مستقبل أفضل ؟ ... وأما اذا أصرّ البعض على القول بأن كل مشكلة الانسان انما تتركز بتمامها حول « العمل » فماذا عسى اذن أن يكون دور « الفراغ » ؟

هنا يقرر بعض علماء الاجتماع أن الفارق بين دنيا العمل ودنيا الفراغ هو كالفارق بين « مملكة الضرورة » و « مملكة الحرية » . ومعنى هذا أن من شأن الفراغ أن يقضي على الاعياء المتسبّب عن العمل ، وأن يزيل أسباب الملل الناجم عن الاستمرار في بذل الجهد ، وأن يعوّض الانسان عن ذلك التشويش الذهني الذي يولده في نفسه تقسيم العمل . ومن هنا فان دور الفراغ في حياة الانسان المعاصر هو دور الدواء الذي يزيل الآثار السيئة الناجمة عن العمل الآلي الرتيب .

ولكن ، أنى للفراغ أن يؤثر على العمل ، اذا كنا قد بدأنا بوضعه خارج نطاق العمل ؟ صحيح أن ثمة « تعبا » ينشأ لدى الانسان نتيجة لما يقوم به من عمل صناعي آلي ، ولكن هذا « التعب » في الحقيقة لا يرجع الى أسباب فسيولوجية بقدر ما هو راجع الى أسباب سيكولوجية . والحق أن الاعياء الذي يشعر به العامل انما يرجع—على وجه الخصوص—الى الضيق الذي يعانيه أثناء تأديته لوظيفته ، مما يسبّب له الشعور بعدم الارتياح . وليس في وسع « الراحة » أن تقضي على أسباب « التعب » الذي يستشعره العامل ، وانما لا بد للعامل من أن يجد في عمله ضربا من « الاهتمام » ، حتى لا يصبح الجهد الذي يقوم به أثناء تأديته لعمله جهدا آليا رتيبا . ومن هنا فانه لا بد لنا من صبغ « العمل » بصبغة بشرية ، حتى يكون في هذا التحويل الجذري لدلالة العمل ما قد يزيل عنه بعض أسباب الرتابة . وأما « الفراغ » وحده فانه لن يكون هو الكفيل بالقضاء على « السأم » ، ما دام النشاط الذي يقوم به العامل في جملته نشاطا آليا رتيبا . فحين يجد العامل نفسه وجها لوجه أمام ذاته ، فانه يجزع لخوائه الباطني ، وبالتالي فانه سرعان ما يعزف بنفسه الى ضروب التسلية العنيفة التي تتناسب مع ايقاع حياته الصناعية الآلية . واذا كان البعض قد تحدث عن ظاهرة « الادمان على تعاطي سموم التسلية » ، فربما كان المقصود بهذا التعبير الافراط في « الهروب من الذات » ، أو العمل على « نسيان الذات » ، عن طريق الاستسلام لرياضات السرعة الآلية المخيفة ، والقيام بشتى الأنشطة الحرة التي تشبع حب الانسان للصخب والضوضاء وما شابه ذلك . وليس أمعن في الخطأ من أن نتوهم أن يكون في الامكان لشخصية المرء أثناء الفراغ أن تكون مغايرة لشخصيته أثناء العمل ، والسبب في ذلك أن سلوك الفرد لا يكاد يتغير بتغير طريقته في استخدامه لوقته . ومن هنا ، فان كل من يضع « الفراغ » في مقابل « العمل » انما يسلم ضمنا بامكان وضع «حالة نفسية» في تعارض تام مع « حالة نفسية » أخرى لدى نفس الفرد . ولكن الحقيقة هي أن «الفراغ» يعكس نوع «العمل» الذي يقوم به الفرد ، فهو يبرز عيوب هذا « العمل » بدلا من أن يخفيها أو يقوّمها .

تحقيق الترابط بين العمل والفراغ

والواقع أنه اذا بقي « الفراغ » بمنأى عن النشاط الحقيقي الفعال للموجود البشري ، فلا بد من أن يصبح عندئذ سببا من أسباب « اغتراب » الانسان عن ذاته . وحينما يتوهم الانسان أن الوقت الذي يقضيه في التسلية هو وحدة الكفيل بتحطيم سلاسله ، فان مثل هذا الوهم قد يصرفه عن التفكير في الميدان الحقيقي الذي لا بد له أن يصارع وينتصر فيه . وهكذا يجيء عالم الفراغ الوهميّ اللاشعوري فيعمي الانسان عن حقيقة هدفه في الحياة ، وعندئذ نراه يضلّ بغير ما هدف في عالم من النشاط العابث اللاعقلي . وهذا ما حدا ببعض المفكرين المعاصرين الى القول بأن « وقت الفراغ قد أصبح أفيون الانسان المعاصر » . وآية ذلك أن الفراغ كثيرا ما يفسد عليه عمله ، ان لم نقل بأنه قد ينتقص—في نظره—من قيمة العمل نفسه !

واذن فانه لا بد لنا—اذا أردنا للفراغ ألا يؤدي الى « اغتراب » الانسان عن ذاته—من أن نوثق الصلة بين كل من « العمل » و « الفراغ » . ومعنى هذا أننا هنا بازاء نمط من أنماط الوجود لا بد لنا من توجيههما معا في اتجاه موحّد ، ألا وهو اتجاه النشاط البشري الكلي أو الشامل . ولا ريب ، فان « العمل » يكوّن ماهية الحياة المادية ، في حين أن « الفراغ » هو الذي يكوّن ماهية الحياة الروحية . وحين يتسنى للانسان أن يحقق الترابط بينهما ، فهنالك قد يكون في وسعه أن يوسّع من دائرة الخبرة البشرية ، وأن يعمل في الوقت نفسه على اثرائها .

الفراغ والحياة الروحية للانسانية

قد يقع في ظن البعض أن « العمل »—والعمل وحده—هو الكفيل بتحرير الانسان . لأن مصير الانسان—كما يقولون—لا يمكن أن يتحقق الا بانتصاره التدريجي على الطبيعة . ولكن الحقيقة أن حرية الانسان ليست مستوعبة بتمامها في « العمل » حتى ولو نظرنا اليه باعتباره مظهرا لسيطرة الانسان على الطبيعة ، بل لا بد للانسان من أن يمتد بحريته الى مجالات أخرى تعدو دائرة الطبيعة ، كمملكة الحقيقة ومملكة الجمال ، وغيرهما من المجالات التي تكمن خلفها أسرار الحياة . واذا كانت التربية الجمالية قد ظلت حتى الآن وقفا على قوم دون غيرهم ، فان تزايد أوقات الفراغ سيكون كفيلا بجعل التربية الجمالية في متناول الجميع . وحين يعرف الانسان المعاصر كيف يستخدم أوقات فراغه فيما يعود عليه بالنفع : أعني فيما يحقق لحياته الروحية المزيد من القوة والعمق والخصوبة ، فهنالك قد تتألق من جديد في السماء الملبدة بدخان المصانع نجوم لامعة تضيء الطريق أمام الانسان !

وأخيرا لا بد لنا من أن نقرر أن « الفراغ » هو الذي يجيء فيحرر الانسان—ولو الى حين—من أسر « العمل » ، لكي يذكره بنفسه ، ويضعه وجها لوجه أمام ذاته . ومثل هذا الوعي الذاتي الذي قد يكتسبه الانسان من خلال « الفراغ » ، هو الذي قد يسمح له بمعاودة « العمل » بروح الالتزام والحرية الحقيقية . وقد تكون هذه المراوحة المستمرة بين العمل والفراغ ، هي المظهر الأوحد لسعي الروح البشرية باستمرار نحو المزيد من الكمال ...! ■

د. زكريا ابراهيم — القاهرة

همسة في أذني

للراحل الدكتور زكي المحاسني



ولَوْ تَلْتَقي أصداؤنا بعد موتنا ... ومِنْ دون رَمْسَيْنا من الأرض سَبْسَبُ
ـدَنْ لهفا صَوتي وإنْ كُنْتُ رِمّةً ... لصَوتِ صدى ليْلَى يَهَشّ ويَطْرَبُ)
—مجنون ليلى—

ـلا إنّمـا الدنيـا رجاءٌ ومَطْلـب ... وإنّ الهوى مِنّي اليكُمْ مُعَذّبُ
ـا غادتي لا تَبْرُمي الشّعْرَ عَنْوَةً ... ولا تتركيني في رُواكِ أُقلّبُ
ـررتُ على الذكرى فألفيتُ دارَها ... نسيجاً بأيدي الريح يأتي ويَذهبُ
ـعالجُ آمالي فيدنو شريدُها ... ويسألني أيْنَ اللّقا والتقرّبُ
ـفي السمعِ مِنّي عَنْدليبٌ مغيّبٌ ... هو ألابكمُ الغرّيدُ عنّيَ يُعرِبُ
ـطرتُ الى آفاقِ عيني فخِلْتُها ... شآبيب دَمْعٍ للأحبّةِ تَندُبُ
ـرسَلْتُ روحي كالحَمَامةِ تنثني ... برَفْرَفِها فوقَ السحائب تُسْحَبُ
ـرودُ ديار الوهم في مَسْبَح المُنَى ... وأبحثُ عن ذاتِي، وذاتِيَ تَهْرُبُ
ـلامٌ على الأحبابِ منذ عرفتُهُمْ ... يَقِلّونَ في البَلوى وأيْنَ المُحَبّبُ
ـلعتُ كنجمٍ أبْهَجَ الليلَ لَمْعُهُ ... ودَلّ السُّرى في حَوْمَةٍ لَيْسَ يَغرُب
ـرّسْتُ مرآتي فلُحْتُ خِلالَها ... ظلالاً وأضناني الكَلالُ المُعَطِّبُ
ـأينَ نَضاراتي، وأيْنَ تَحَمْحُمِي ... كأنّي جَوادٌ من نَدى الرّيح يَشْرَبُ
ـزعتُ لِشعْري وهو سَلوايَ في الأسى ... أحاورهُ صوتاً بصوتٍ وأعْجَبُ
ـلْمَسُ أحلامي هَباءً هُفوفُها ... وأنْشَقُ منها راوياتي وأسْكُبُ
ـيا غادتي حتّامَ هَجْرُكِ في الهَوى ... تعَالَيْ كما كُنّا نُحِبّ ونَطْرَبُ



النّيازك ..
حجارة وقذائف من الفضاء

بقلم الاستاذ محمد العيسى الذ

جلمود من الفضاء زنته نحو ١٩٠ كيلوجراما
في جنوب غرب افريقيا .

سقوط النيازك على سطح الأرض

في الليالي الصافية وغير المقمرة نشاهد عشرات الأجرام المتوهجة تهوي من السماء ثم تتلاشى ، ونادرا ما تنحدر تلك الأجرام خلف الأفق المظلم ساحبة خلفها ذيلا من النور الساطع . تلك الأجرام هي اما أن تكون نيازك متوهجة أو مذنّبات .

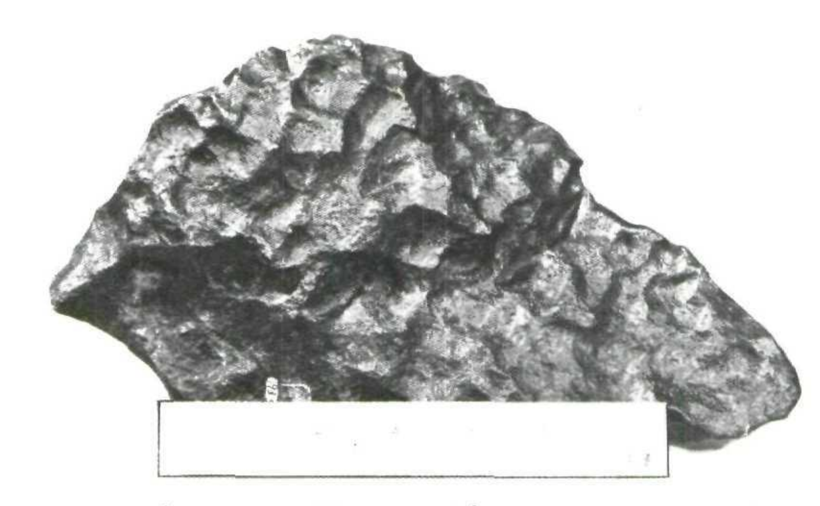
و « النيازك – Meteorites » عبـارة عن أجرام فلكية صغيرة تسقط على سطح الأرض تحت تأثير الجاذبية الأرضية . والمعروف علميا أن سرعة الجرم أثناء تلاقيه مع الغلاف الجوي العلوي للأرض غالبا ما تتراوح بين ١١ و ٧٢ كيلومترا في الثانية . كما أن درجة حرارته قبل دخوله جو الأرض تبلغ حوالي أربع درجات مئوية . وبعد دخول الجرم الغلاف الجوي للأرض ترتفع درجة حرارته نتيجة لاحتكاكه بالغازات المنتشرة في الجو ، ومن ثم يبدأ بالتوهج ، وفي هذه الحالة ، يسمى الجرم شهابا . فقد لوحظ أن مقدار الضوء المنبعث عن هذا الجرم الفلكي أثناء التوهج يتناسب تناسبا طرديا مع وزن الجرم نفسه. ونظرا لشدة التوهج ، يأخذ الجرم بالتبخر تدريجيا .. فاذا كان الجرم كبيرا فمن المحتمل أن يصل جزء منه الى سطح الأرض على هيئة قطعة صلبة ، وعند ذلك يسمى الجرم « نيزكا » .

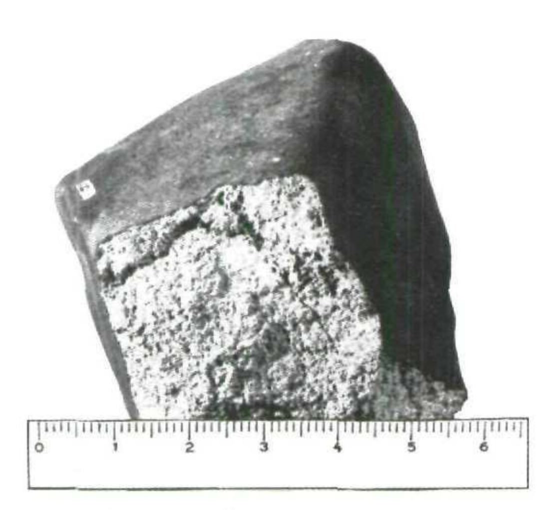
لقد تبين علميا أن كتلة الجرم ، قبل أن تصل الى سطح الأرض ، تفقد تسعة أعشار وزنها على شكل غازات غالبا ما تتكثف الى دقائق صغيرة ، ومن ثم تهبط على وجه الأرض على هيئة رماد نيزكي أو تظل عالقة في قطرات المطر .

وتتراوح أوزان النيازك المختلفة ما بين الميلليجرام (جزء من ألف جزء من الجرام) ومئات الكيلوجرامات . ويعتبر النيزك الذي وجـد بالقرب مـن « جروت فونتن –



اكتشف هذا النيزك الحديدي الضخم في جرينلاند عام ١٩٦٣ ، ويبلغ وزنه ١٦ طنا ، ويبدو هنا وقد أعد للشحن الى كوبنهاجن في الدانمارك .


نيزك حديدي صغير الحجم سقط في أستراليا ويوجد الآن في جامعة ولاية أريزونا .



قطعة من نيزك حجري سقط في ولاية « داكوتا » الجنوبية ، والقطعة معروضة في جامعة ولاية أريزونا الأمريكية .

Grootfontein » في جنوب غرب أفريقيا من أكبر النيازك المعروفة ، حيث يبلغ وزنه حوالي خمسين طنا . أما بالنسبة لأكبر نيزك معروض للمشاهدة فذلك الذي يوجد في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي ، في مدينة نيويورك ، ويبلغ وزنه ٣٤ طنا .

لقد دلت الاحصاءات الواقعة في الفترة ما بين عامي ١٨٠٠ و ١٩٦٠م على أن معدّل تساقط النيازك على سطح الأرض يزداد خلال شهر يونيه ويقل في شهر مارس من كل عام . أما بالنسبة لمتوسط وزن ما يسقط على سطح الكرة الأرضية فقد قدّر بحوالي ٥٥٠٠ طن يوميا .

نيازك حديثة وهائلة

لقد حدث في ٣٠ يونيه ١٩٠٨م أن سقط نيزك هائل على وسط سيبيريا ، ولقد أدى ارتطامه بالأرض الى أحداث هزات أرضية حول منطقة السقوط ، وسجلت مراكز الزلازل في أوروبا تلك الهزات ، كما أدى الارتطام الى تساقط بعض الأشجار التي كانت بعيدة نسبيا عن مكان السقوط . أما في ١٢ فبراير ١٩٤٧م فلقد سقط نيزك آخر بالقرب من « فلاديفوستك » في سيبيريا . ووصفه المشاهدون وهو يقترب من سطح الأرض بأنه كالشمس الساطعة . وتفجر ذلك النيزك قبل أن يصل الى سطح الأرض وتحول الى شظايا نيزكية تساقطت على المنطقة وأحدثت ١٠٦ فجوات دائرية في أرض المنطقة ، بلغ قطر أكبرها حوالي عشرة أمتار ، كما جمع ما يربو على خمسة أطنان من قطعه الحديدية .

النيازك وسطح القمر

ان وجود فوهات شبه بركانية على سطح القمر من الظواهر الطبيعية التي تلفت الأنظار لهذا فقد أتى على العلماء أكثر من عشرين عاما وهم يبحثون في أصل تلك الفوهات القمرية . وتشير الأبحاث الأخيرة التي نشرت في أواخر عام ١٩٧٢م بشأن هذا الموضوع بأن معظم الفوهات القمرية تكونت نتيجة اصطدام النيازك بسطح القمر وذلك خلال العصور الجيولوجية القمرية .

هذا ، وبالنسبة لصخور القمر التي أحضرها رواد الفضاء الأمريكيون لوحظ أنها كانت معرضة لعوامل التعرية . وحيث أن الماء والهواء ، وهما عاملان من عوامل التعرية ، لا يوجدان على سطح القمر ، فلقد عزا العلماء ذلك الى « النيازك المجهرية — Micrometeorites » التي تسقط على سطحه باستمرار . وعلى مر آلاف السنين أدى تساقط النيازك المجهرية على الصخور القمرية الى تعريتها وتآكلها . وعملية التعرية هذه تشبه الى حد ما تلك التي تتعرض لها بعض الصخور الأرضية . فالدقائق الرملية التي تحملها رياح الأرض تصطدم بالصخور الشامخة في مهب الرياح . وعلى مر آلاف السنين نجد الصخرة الشامخة وقد بدا عليها التآكل وهنا نجد التشابه في عملية التعرية التي تقوم بها الدقائق الرملية على سطح الأرض وعملية التعرية التي تقوم بها النيازك المجهرية على سطح القمر .

أنواع النيازك

تنقسم النيازك الى ثلاثة أنواع رئيسية :

حديدية : ويتكون هذا النوع من حديد ونيكل ، وهما من الفلزات ، على هيئة سبيكة . ويمثل النيكل ما بين ٤ الى ٢٠ في المئة من وزن النيزك والباقي عبارة عن حديد . ويوجد عادة بعض المعادن مثل « الترويلايت — Troilite » والجرافيت مبعثرة في أجسام النيازك الحديدية وعلى شكل حبيبات صغيرة .

حجرية : وتتركب من عدة معادن أهمها « الأولفين — Olivine » الذي يمثل ٤٠٪ ، و « البيروكسين — Pyroxene » ويمثل ٣٠٪ ، و « البلاجيوكليز — Plagioclase » ويمثل ١٠٪ ، و « الترويلايت » ويمثل ٦٪ ، بالاضافة الى نسبة من الحديد والنيكل يتراوح مقدارها بين ١٠٪ و ٢٠٪ .

ان هذا التركيب المعدني يشبه الى حد ما تركيب بعض الصخور النارية الأرضية . لذلك فان هناك تشابها من حيث نشوء بعض صخور الأرض النارية ونشوء النيازك الحجرية . ومن



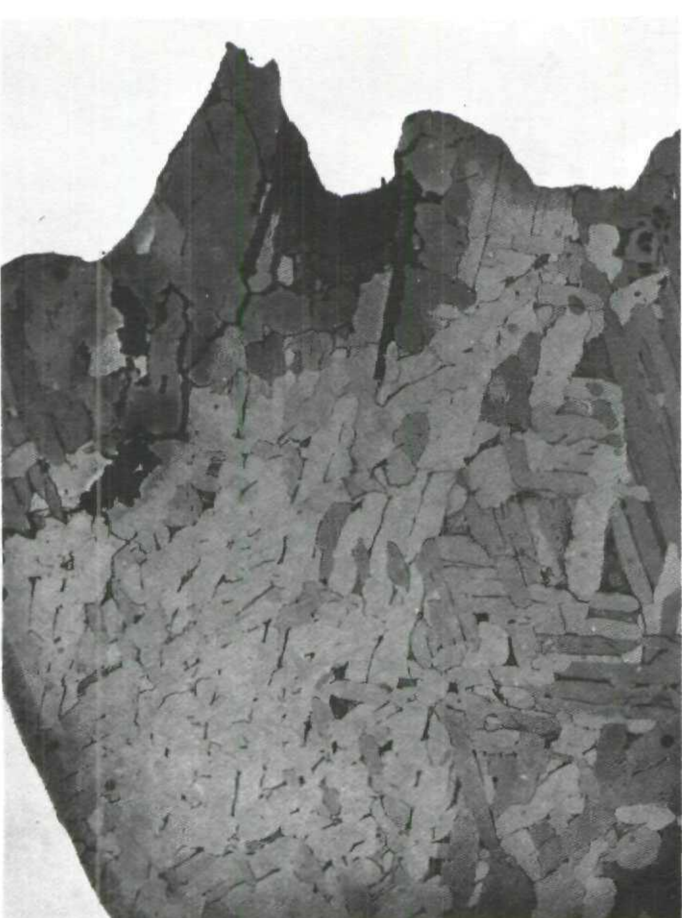
هوى هذا النيزك على منطقة بوجو في فولتا العليا عام ١٩٦٢ بسرعة تقدر بنحو ٣٥ ميل في الثانية .

نيزك موجود في المتحف الوطني الأمريكي يتألف من الحديد والنيكل ، ويبلغ عمره ٤٤٠ مليون سنة ، وهو على درجة من الصلابة بحيث يحتاج قص قطعة منه الى نحو ثماني ساعات .

عثر على هذا النيزك في ولاية أوكلاهوما الأمريكية ، ويزن نحو عشرة كيلو جرامات .

في مختبرات الأبحاث تعالج قطع النيازك بالأحماض بغية معرفة تركيبها الكيميائي والمعدني .


يقوم هذان العالمان بفحص جسم زجاجي « تكتيت » من أصل نيزكي ، يعتقد أنه انتزع من سطح القمر بتأثير نيزك ضخم .


التركيب الداخلي للنيزك يكشف للعلماء قدرا كبيرا عن تاريخه ، ويزودهم بمعلومات دقيقة عن تكوينه وكيفية سقوطه على سطح الأرض .

الجدير بالملاحظة أنه قد تبين أن النيازك الحجرية تحتوي على بعض المركبات العضوية ، وقد مضى على العلماء حتى الآن أكثر من قرن وهم يواصلون أبحاثهم لمعرفة أصل تلك المركبات ، غير أنهم لم يتوصلوا الى حل قاطع بعد . وقد ذهب بعضهم الى القول بأن تلك المركبات هي نتيجة تفاعلات غير عضوية ، بينما يرى فريق آخر أنها بقايا كائنات حية !

حديدية حجرية : ويجمع هذا النوع ما بين النوعين السابقين .

عمر النيازك وأصلها

اكتشف العلماء عن طريق استخدام النظائر المشعة الطبيعية أن متوسط عمر النيازك يبلغ حوالي ٤٧٠٠ مليون سنة .

أما أصل النيازك فيتطلب البحث فيه أولا ، النظر الى التركيب العام للكوكب الذي نعيش عليه ، وذلك لوجود تشابه في تكوين كل من الأرض والنيازك . فكوكب الأرض يتألف من ثلاث طبقات رئيسية هي : القشرة والباطن والقلب . وتتكون هذه الطبقات من حجارة وفلزات الى جانب مواد منصهرة ولدنة . فالحجارة والفلزات الأرضية تشبه في تركيبها الكيميائي والمعدني النيازك الحجرية والحديدية الفلزية . وبالمقارنة بين تكوين الأرض وتكوين النيازك فقد تبين أن النيازك ، بأنواعها الثلاثة ، تمثل عينات من ثلاث طبقات لأرض ما .

ثانيا ، لو نظرنا الى المنطقة الواقعة بين مداري المريخ والمشتري لوجدنا ما يقرب من ٤٤٠٠ « كويكب – Asteroids » ، كل آخذ مداره حول الشمس كأي كوكب في النظام الشمسي . ويعتبر الكويكب « سيريس – Ceres » من أكبرها حجما ، وقُدّر قطره بـ ٧٨٥ كيلومترا ، وقد اثبتت تحريات المراصد الفلكية أن النيازك التي تسقط على سطح الأرض انما تأتي من منطقة الكويكبات . وعلى ضوء ذلك فان أصل النيازك هو أصل الكويكبات التي تفاوتت أحجامها .

نظرية التكوين

تتلخص النظرية الحديثة في تكوين النيازك في أن المنطقة المدارية الواقعة ما بين كوكبي المريخ والمشتري كان يشغلها بضعة كويكبات بحجم الكويكب « سيريس » الآنف الذكر تقريبا . وكان التركيب العام لكل كويكب يشبه الى حد ما تركيب كوكب الأرض ، الا أن قشرة تلك الكويكبات لم تتطور بالدرجة نفسها التي تطورت فيها القشرة الأرضية . وخلال العصور الجيولوجية الماضية ، حدث تصادم بين بعض تلك الكويكبات مما أدى الى بداية سلسلة من التصادمات التي أدت بدورها الى تكوين الكويكبات الأخرى ذات الأحجام الصغيرة . وكذلك النيازك التي تعتبر شظايا ناجمة عن تلك التصادمات ■

أخبار الكتب

* يواصل مجمع اللغة العربية بدمشق العناية باخراج كتب التراث بعد تحقيقها تحقيقا علميا بأيدي الباحثين المتخصصين .

ومن الكتب التي صدرت عن المجمع أخيرا « نصرة الثائر على المثل السائر » لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي وتحقيق الأستاذ محمد علي سلطاني ، و « كتاب الأزهية في علم الحروف » للأستاذ علي بن محمد النحوي الهروي وتحقيق الأستاذ عبد المعين الملوحي ، و « ديوان عرقلة الكلبي حسان بن نمير » تحقيق الأستاذ أحمد الجندي و « ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب » للمرتضى الزبيدي وتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، و « شعر عمرو بن أحمد الباهلي » جمع وتحقيق الدكتور حسين عطوان ، والجزءان الأول والثاني من « شرح المفضليات » للتبريزي وتحقيق الدكتور فخر الدين قباوة ، وكتاب « ايضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل » لابن الأنباري وهو جزءان من تحقيق الأستاذ محي الدين رمضان ، وكتاب « نظرة عيان وتبيان في مقالة أسماء أعضاء الانسان » لابن فارس وقد شرحها وعلق عليها وأضاف اليها مقابلها باللغتين الافرنسية والانكليزية المرحوم الدكتور صلاح الدين الكواكبي .

كما أصدر المجمع ثلاثة كتب في العلوم البحرية عند العرب هي : « العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية » و « المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر » وكلاهما من تأليف سليمان ابن أحمد بن سليمان المهري وتحقيق الأستاذ ابراهيم خوري ، وكتاب « الفوائد في أصول علم البحر والقواعد » لشهاب الدين أحمد بن ماجد النجدي وقد حققه الأستاذ ابراهيم خوري والدكتور عزة حسن .

وفي الوقت ذاته حقق الأستاذ ابراهيم الخوري كتاب « حاوية الاختصار في أصول علم البحار » لابن ماجد وقد نشره المعهد العلمي الفرنسي بدمشق .

* ومن كتب التراث الأخرى التي صدرت أخيرا « الفاضل في صفة الأدب الكامل » لأبي الطيب الوشاء وقد حققه المرحوم يوسف يعقوب مسكوني ، وقدم له الأستاذ شاكر علي التكريتي ونشرته وزارة الأعلام العراقية ، والجزء الرابع من كتاب « العيون والحدائق في أخبار الحقائق» لمؤلف مجهول وقد حققه الأستاذ عمر السعيدي ونشره المعهد العلمي الفرنسي بدمشق ، و « بدائع البدائه » لابن ظافر الأزدي وقد حققه العلامة الكبير الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم ونشرته مكتبة الأنجلو ، وكتاب « الحروف » لأبي نصر الفارابي وتحقيق الدكتور محسن مهدي ونشر دار المشرق ببيروت ، وكتاب « القوافي » لأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش من تحقيق الدكتور عزة حسن ونشر وزارة الثقافة السورية ، وكتاب « الفنون » لأبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي وقد صدر منه جزءان بتحقيق الدكتور جورج المقدسي ونشر دار المشرق ببيروت ، كما ظهر القسم الأول من الجزء الأول من « درر الحبب في تاريخ أعيان حلب » لابن الحنبلي من تحقيق الأستاذين محمود الفاخوري ويحيي عبّارة ونشر وزارة الثقافة السورية .

* كذلك أصدرت الهيئة المصرية العامة للكتاب طائفة جديدة من كتب التراث منها « التعليقات » لابن سينا من تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي ، وأربعة أجزاء من « السلوك في معرفة دول الملوك » لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي من تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، والجزء الثالث من « كشاف اصطلاحات الفنون » لمحمد علي الفاروقي التهانوي وتحقيق الدكتور لطفي عبد البديع ومراجعة الدكتور عبد النعيم حسنين ، والجزء الثالث من « معاني القرآن » لأبي زكريا بن زياد تحقيق الدكتور عبد الفتاح اسماعيل شلبي ومراجعة الأستاذ علي النجدي ، وطبعة جديدة في جزءين من « أساس البلاغة » لجاد الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري من تحقيق مركز التراث .

* في أدب الرحلات ظهر كتاب جديد للأديب الحجازي الأستاذ عبد الله بن سعد الرويشد عنوانه « أيام في تونس » وقد كتب مقدمته الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي وصدر عن رابطة الأدب الحديث بالقاهرة .

* « ثرثرة الصباح » عنوان كتاب طريف للأستاذ سعد البواردي فيه خواطر اجتماعية وفكرية . وقد طبع في بيروت .

* في الدراسات الأدبية ظهرت مجموعة من الكتب من أهمها « أعلام الجيل الأول من شعراء العربية في القرن العشرين » للعلامة الأستاذ أنيس المقدسي ، و« عنادل مهاجرة » وهو دراسة لشعراء العصبة الأندلسية في سان باولو أعدها الدكتور عمر الدقاق وصدرت عن دار الانشاء بدمشق ، و « دراسة نصوص من الشعر العربي المعاصر » للدكتورة عزيزة مريدن نشر دمشق ، و « الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث » للدكتور ماهر حسن فهمي نشر معهد البحوث والدراسات العربية ، و « في الغربال الجديد » للأستاذ ميخائيل نعيمة نشر مؤسسة بدران ، و « أحاديث مع الصحافة » للأستاذ ميخائيل نعيمة أيضا ، و « أضواء على الشعر الحديث » للأستاذ راجي عشتوتي ، و « محمود المسعدي وكتابه : السد » وهو دراسات للمسرحية المشهورة لهذا الأديب الجزائري أعدها الأستاذ نور الدين صمّود ونشرتها الدار التونسية للنشر ، و « دراسات في الأدب الفرنسي » ، للدكتور علي درويش وقد صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، و « الحركة الفكرية في حلب » للأديبة عائشة الدباغ ، و « الشخصية والصراع المأساوي » للأستاذ عدنان ابن ذريل والكتابان من نشر الشام .

* كتاب جديد في فن الصحافة ظهر في جزءين بعنوان « اتجاهات حديثة في فن التحرير الصحفي » وهو من تأليف الدكتورة اجلال خليفة ونشر مكتبة الأنجلو .

* الهيئة المشرفة على اصدار معجم لاروس الافرنسي أصدرت طبعة للمعجم باللغة العربية تحمل اسم « لاروس» وهو معجم عربي/عربي جديد .

وصدر للدكتور عفيف بهنسي « معجم مصطلحات الفنون » باللغات الانكليزية والافرنسية والعربية وصدر عن مجمع اللغة العربية بدمشق .

* ديوان جديد للشاعر الأردني الأستاذ حسين رشيد خريس ظهر بعنوان « حكاية وجدان » وفيه تجربة الشاعر الخصبة في الوجدانيات والحماسيات والرمزيات ، وللديوان مقدمة بقلم الشاعر عن الشعر في عصر الفضاء والتجديد الذي يرتجى للشعر وهو يتابع قفزات العلم والتقنية . وقد صدر الديوان عن المكتبة العصرية بصيدا .

ومن الدواوين الجديدة ثلاثة خرجت لشاعرات معاصرات ، هي ديوان « يسمونه الحب » للشاعرة العراقية لميعة عباس عمّارة وقد صدر عن دار العودة ، و « شراع بلا مرسى » للشاعرة مؤمنة العوف التي عرفت باسمها المستعار سلافة العامري ، و « الشارع ، المدينة ، الرقم » للشاعرة هدى أديب ونشر دار الأديب ببيروت .

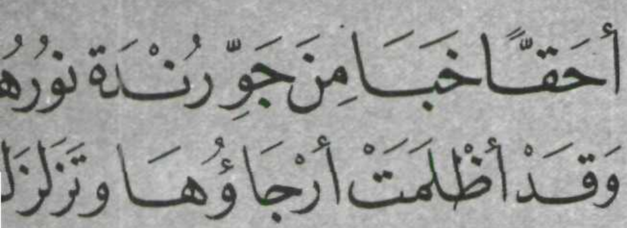
وصدر للشاعر توفيق ابراهيم ديوانان هما « شارع النجوم » و « المجرمون » عن مطبعة ستاركو ببيروت ، كما صدر للشاعر جهاد قلعجي ديوان « زهرة اسمها المحبة » عن دار الكاتب العربي ، وللأستاذ اسماعيل عامود ديوان « أغنيات للأرصفة البالية » .

* « الشريط الأسود » اعترافات وسيرة ذاتية للأديب الأردني الأستاذ عيسى الناعوري بمقدمة للدكتور شوقي ضيف . وقد صدرت عن دار المعارف .

الى رحمة الله

انتقل الى رحمة الله تعالى الاستاذ الكبير محمود تيمور ، رائد القصة القصيرة . وقد كان رحمه الله من كتاب القافلة البارزين . تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته ..

رندة



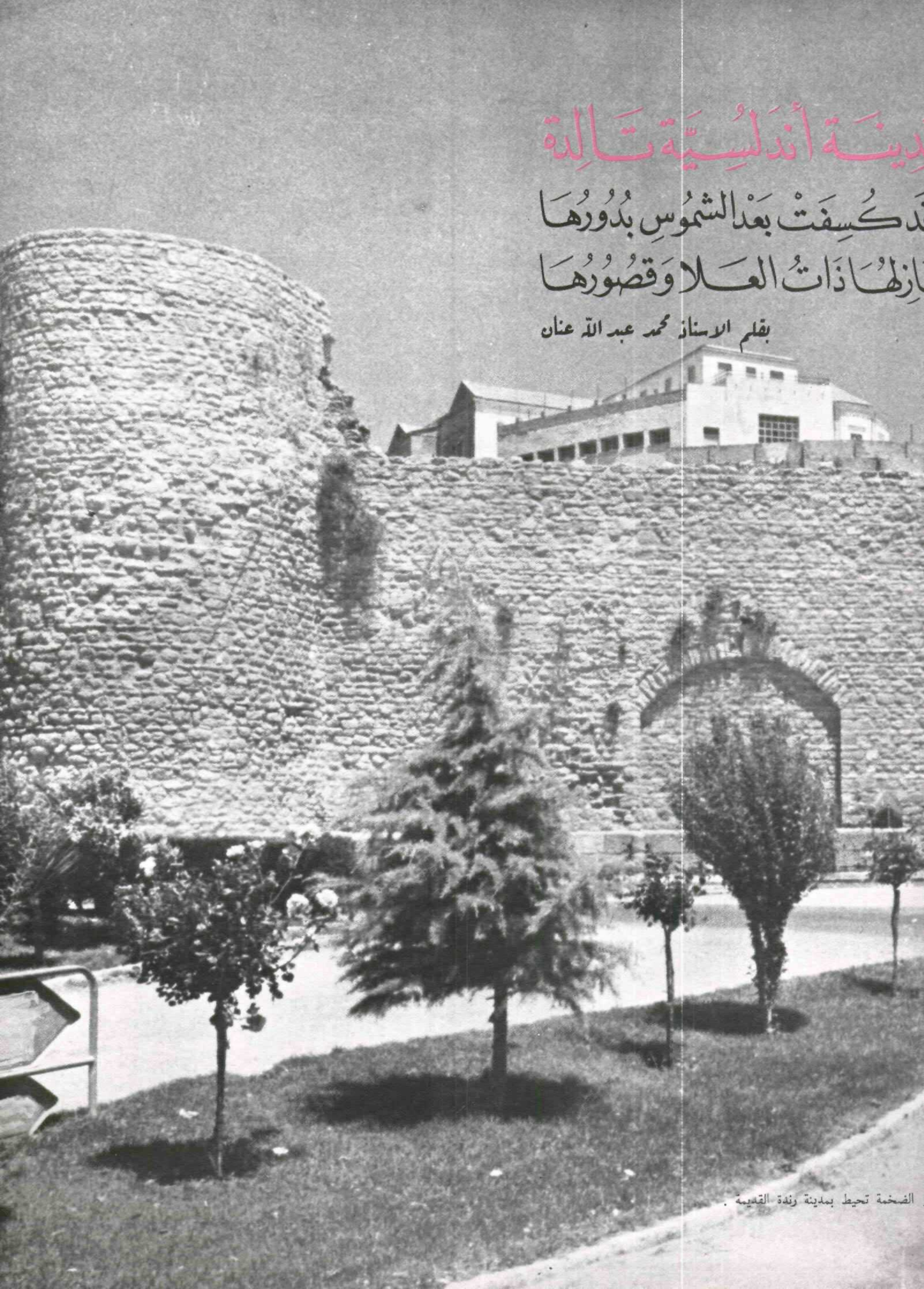
هكذا يستهل الشاعر مرثيته الأندلسية التي يرثي فيها قواعد الأندلس الأخيرة ، وفي مقدمتها رندة « Ronda » وفقا لتاريخ سقوطها .

كانت مدينة رندة ، من أعرق قواعد الأندلس الجنوبية ، وقد قدر لها أن تعيش تحت حكم الاسلام والعروبة ، منذ الفتح زهاء ثمانية قرون ، ولم تسقط في يد القشتاليين الا في سنة ٨٩٠هـ (١٤٨٥م) قبيل سقوط غرناطة ، آخر قواعد الاسلام بالأندلس ، ببضعة أعوام .

وتحتل رندة موقعا فريدا ، فوق هَضبتها الرائعة ، التي تحيط بها الوديان السحيقة ، والآكام العالية وتقع على مقربة من شمال غربي مالقة ، وتفصلها عن مالقة جبال الثلج الشهيرة (سيرا نفادا) ويخترقها من الوسط نهر وادي لبين الصغير « Guadalebin » ، في مجرى عميق ينساب الى بطن الوادي السحيق ، وعليه قناطر ثلاث ، الرومانية والعربية والحديثة ، وقد اشتهرت رندة طوال العصور ، بموقعها الفريد وحصانتها الفائقة . وقد وصفها الرحالة ابن بطوطة الذي زار الأندلس سنة ٧٥١هـ (١٣٢٠م) بقوله : « وهي من أمنع معاقل المسلمين ، وأجملها وصفا » .

ولا ترى العين حول رندة سوى القليل من البسائط الخضراء ، بيد أنه يوجد فوق البقاع والوديان والتلال المحيطة بها ، كثير من غابات الزيتون ، وهو أهم محاصيل هذه المنطقة الوعرة .

وقد اشتهرت رندة فوق منعتها وحصانتها المأثورة ، بمن أنجبته من العلماء والأدباء والشعراء ، الذين يحتلون في تاريخ الأدب الأندلسي مكانة مرموقة . وأن المقام



...مدينة أندلسية تالدة

...قد كسفت بعد الشموس بدورها

...نازلها ذات العلا وقصورها

بقلم الاستاذ محمد عبد الله عنان

... الضخمة تحيط بمدينة رندة القديمة .

لا يتسع هنا للافاضة في الحديث عنهم ومن ثم فإنا نكتفي بذكر ثلاثة من اعلامها البارزين . وأولهم أبو القاسم أخْيَل بن ادريس الرندي المتوفى سنة ٥٦٠هـ (١١٦٥م) . وقد كان اخيل من أبناء رندة الذين أحرزوا السبق في ميدان الأدب والسياسة معا . فقد كان كاتبا بليغا وشاعرا مطبوعا ، ظهر لأول مرة بالكتابة لامراء الدولة المرابطية ، التي كانت تبسط يومئذ سلطانها على الأندلس ، ولما ضعف أمر المرابطين ، امتدت الثورة ضدهم الى معظم قواعد الأندلس ، قام اخيل في بلده رندة ، واستطاع أن يبسط حكمه عليها مدة قصيرة ، ولكنه عزل عن ولايتها على يد بعض نواب ابن حَمْدين أمير قرطبة ، فعبر البحر الى المغرب واتصل بالموحدين الذين بزغ نجمهم يومئذ ، ثم عاد الى الأندلس ، وتولى قضاء قرطبة ، ثم وُلّي قضاء اشبيلية ومكث بها حتى وفاته .

على أن رندة تشتهر بنوع خاص ، بعلمين من أبنائها ، هما أديبها وشاعرها الكبير أبو الطيب الرندي صاحب مرثية الأندلس ، وامامها الشهير ابن عباد الرندي القطب الصوفي وشارح الحكم العطائية .

فأما الأول ، فهو أبو الطيب صالح ابن موسى بن شريف النفزي ، شاعر الدولة النصرية ، ولد برندة سنة ٦٠١ هـ ونشأ بها ، وبرع في النظم والنثر معا ، وقد وصفه القاضي ابن عبد الملك في « التكملة » بأنه خاتمة أدباء الأندلس . وعاش أبو الطيب الرندي في عصر الفتنة الكبرى ، التي اضطرمت بها الأندلس في أواسط القرن السابع الهجري ، والتي تمخضت عن سقوط معظم القواعد الأندلسية في أيدي النصارى ثم عن قيام مملكة غرناطة تحت ظل بني الأحمر لتضم ما بقي من اشلاء الأندلس الممزقة . ونظم أبو الطيب يومئذ في رثاء الأندلس مرثيته الشهيرة التي أولها :

لكل شيء اذا ما تم نقصان
فلا يُغَرّ بطيب العيش انسان
هي الأمور كما شاهدتها دول
من سرّه زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد
ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة
اذا نبت مَشْرفيّات وخِرصان

وقد اتصل الشاعر بالدولة النصرية الفتية منذ قيامها ، فقربه السلطان محمد بن الأحمر النصري ، مؤسس مملكة غرناطة ، وغدا شاعره الأثير ، وكان يعجب بشعره ويطرب له ، واشتهر الى جانب مرثيته الأندلسية المبكية بمدائحه للسلطان . وتوفي أبو الطيب الرندي في سنة ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) .

وأما الثاني من أعلام رندة البارزين ، فهو القطب الامام أبو عبد الله محمد بن أبي اسحق ابراهيم بن أبي بكر بن عباد ، العالم الزاهد المتصوف ، ولد برندة سنة ٧٣٣هـ ونشأ بها وبرع في النحو والأدب والشريعة ، والأصول والفروع ، حتى ذاعت شهرته ، وعبر البحر الى المغرب ، ودرس في فاس وتلمسان ، وتلقى عن أقطاب عصره ، واشتهر ببراعته في النحو والعربية واتقان أصولها ولا سيما كتب ابن الحاجب وابن مالك ، والزّجاج وغيرهم . واشتهر بنوع خاص بشرحه لكتاب « الحكم العطائية » وهو الكتاب الذي وضعه العلامة المصري تاج الدين بن عطاء الله السكندري المتوفى سنة ٧٠٩هـ ، وقد كان من أكبر علماء عصره في أصول الدين والشريعة . وتوفي ابن عباد في شهر رجب سنة ٧٩٢هـ (١٣٩٠م) .



أحد القصور العريقة في رندة ويبدو فيه أثر العمارة الاسلامية واضحا .



أدخل المسلمون زراعة النخيل الى الأ



يقف هذا المبنى كمثال حي لفن العمارة الاسلامي .

ورندة الحالية ، مدينة متوسطة الحجم ، يبلغ عدد سكانها نحو أربعين ألفا ، ويشقها من الشمال الى الجنوب شارعها الرئيسي المسمى شارع أرمينان « Arminan » وعلى جانبيه تقع المتاجر والمقاهي الرئيسية ، وتتفرع منه الدروب الى أنحاء المدينة يمنة ويسرة . وأهم معالمه مسرح مصارعة الثيران « كوريدا – Corrida » وهو أقدم مسرح من نوعه أنشئ في اسبانيا ، وذلك في سنة ١٧٨٤ وهو يمتاز بمدخله الفخم المعقود ، ذي الزخارف المُدَجّنية .

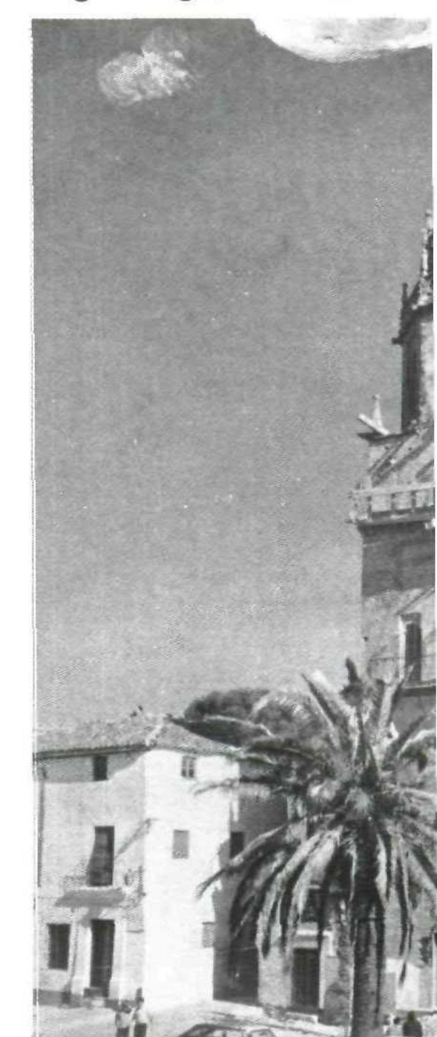
وتضم رندة طائفة منوعة من المعالم الأندلسية ، وأهم هـــذه المعـــالم القنطرة العربية القائمة على نهر لبين . وهذه القنطرة بالرغم من صغرها ، تعتبر من أهم الآثار الأندلسية الباقية ، وهي تضارع قنطرة طليطلة الشهيرة ، في روعتها ومنعتها . وتقوم على النهر في منخفض عميق عند مدخل المدينة الغربي ، وهي ذات عقد واحد رائع الهندسة ، بالغ الارتفاع ، والنهر يمر من تحتها بين صخور وعرة شاهقة . ولسنا نعرف تاريخ انشاء هذه القنطرة ، ولكن يبدو من طرازها أنها قد أنشئت في العصر الأندلسي الأول في القرن الثاني أو الثالث الهجري .

والأثر الثاني من آثار رندة الأندلسية، هو قصر الأمير أبي مالك المريني – وهو يعرف اليوم بـ « منزل خيجانتي – Casa del Gigante » وهو اسم الأسرة الاسبانية التي تملكـــه . ويقع هـذا المنزل في طرف المدينـة الجنوبي على مقربة من الكنيسة الكبرى ، في بعض الدروب الضيقة ، وله فنـــاء أندلسي رائع يزدان أحد جوانبه بستة عقود عربيـــة ، وقد زينت رؤوس أعمدتها بالزخارف العربية الجميلة . وتوجد بجوار الفناء قاعة أندلسية كبيرة ذات سقف خشبي مطعم بالمقرنصات ، وفيها عقدان كبيران متقابلان قد غُصا بالزخارف والكتابات العربية . كذلك يوجد في أعلى جانبي القاعة كثير من النقوش الرخامية المتداخلة ، ومعظمها آيات قرآنية وأدعية وتحيات للسلطان .

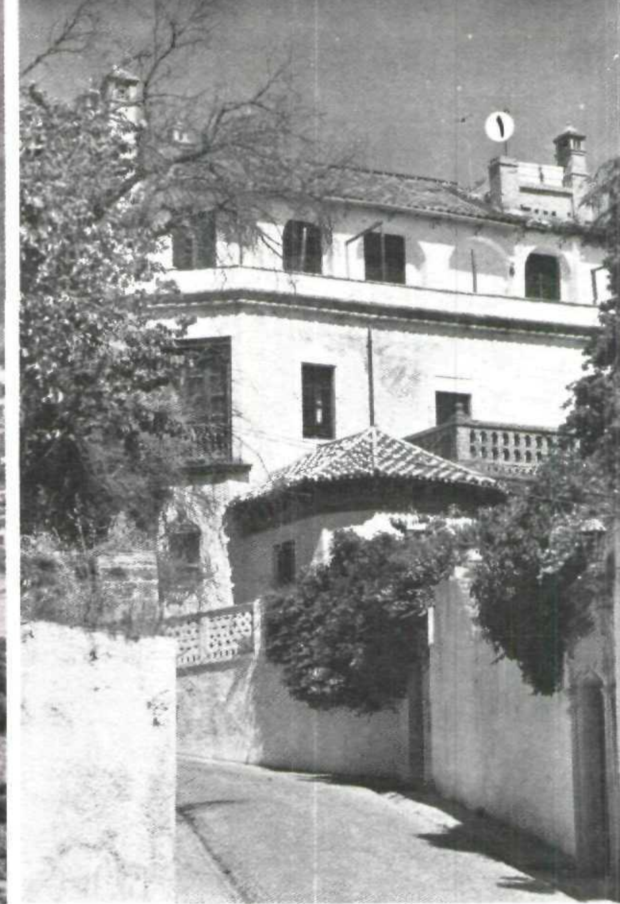
وينسب هذا المنزل حسبما تقدم الى الأمير أبي مالك ، ولد السلطان أبي الحسن المريني ملك المغرب . والمعروف أن ابن الأحمر ملك غرناطة تمكينا للمودة بينه وبين بني مرين ملوك المغرب ، وضمانا لمعونتهم ونجدتهم ،

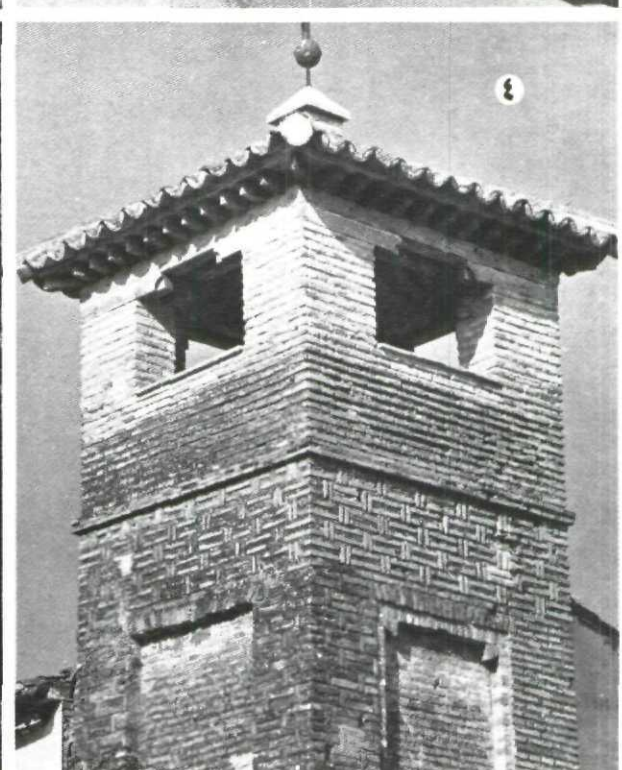
إن رندة ما زالت تحتفظ بكثير من سماتها الأندلسية . ويرجع ذلك أولا الى أنها لم تسقط في أيدي الاسبان الا في عصر متأخر ، في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، وثانيا الى طبيعتها الصخرية الوعرة ، التي لم تسمح بتحويلها الى مدينة عصرية حديثة ، ومن ثم فانها ، مثل مدينة طليطلة ، التي تماثلها في طبيعتها الصخرية باقية على خططها الأندلسية القديمة ، من الدروب الضيقة المتعرجة ، والمنازل المنخفضة ذات الأفنية الأندلسية ، في وسطها النوافير وأشجار النارنج والنخيل . ويبدو أن رندة الحالية كانت تمتد نحو الجنوب الى أبعد مما هي الآن ، اذا تأملنا موقع الكنيسة الكبرى ، التي تقوم عادة فوق موقع المسجد الجامع . ونحن نعرف من تخطيط المدينة الاسلامية ، أن المسجد الجامع كان يقـــوم في وسطها ، كما يبـــدو أن خطط المدينة الأندلسية كانت تنتهي عند القنطرة العربية التي يجيء ذكرها ، وعند أسوار القصبة ، التي تقوم أطلالها تجاه القنطرة من ناحية الجنوب وان الجزء الحـــديث من المدينة الحالية ، يمتد ما بين القنطرة العربية ومدخل المدينة .

جار النخيل المنتصبة أمام برج رندة الشامخ .









ضد النصارى ، قد تنازل اليهم عن مدينة رندة وجبل طارق ، والجزيرة الخضراء ، لتنزل بها جنودهم القادمة للغوث والانجاد ، وذلك منذ أوائل القرن الرابع عشر الميلادي ، وقد بقيت هذه القواعد في حوزتهم عصرا ، وقد أقام الأمير أبو مالك برندة فترة من الوقت حينما انتدبه أبوه السلطان أبو الحسن واليا على أملاكه الأندلسية .

ويوجد كذلك بناء أندلسي آخر على مقربة امن النهر تملكه أسرة « سالبتيرا » لاسبانية وهو عبـارة عن قصر أندلسي صغير فخم ذي فناء أندلسي ، تزين جوانبه الأربع عقود أندلسية بديعة .

وهنالك في نهاية المدينة ، قبل الكنيسة الكبرى بقليل ، يوجد أثر أندلسي مؤثر هو عبارة عن صومعة (منارة) قديمة تقع في ميدان صغير ، وتقوم مباشرة بين منزلين صغيرين ، ويبلغ ارتفاعها نحو اثني عشر مترا . ويوجد في وسط كل جانب من جوانبها الأربعة كوّتان ، وقد سُدّت الكوَى في جانبين ، وبقيت في الجانبين الآخرين لتدل على أصلها الاسلامي ، وعلى صفتها كمئذنة لمسجد صغير . وقد حُوّل هذا المسجد فيما بعد الى كنيسة ، وحُوّلت الصومعة الصغيرة الى برج ، وبقي جزؤها



١ – معظم منازل مدينة رندة منخفض ويتألف المنزل من طابق أو طابقين يحتوي على فناء تغرس فيه الأشجار الظليلة . ٢ – منظر عام لمدينة رندة تحف بها الجبال الشامخة المكسوة بأشجار الزيتون . ٣ – تستأثر الأبواب ومـداخل البيوت في رندة بأدق الزخارف والنقوش . ٤ – المنارة العربية وهي مربعة الشكل تشبه طراز مـآذن عصر الموحدين في الأنـدلس . ٥ – طبيعة المنطقة الوعرة في رندة لم تقف حائلا دون تشييد المنازل على رؤوس الصخور الشامخة . ٦ – القنطرة العربية القائمة على نهر وادي « لبين » ، وهي من أهم الآثار الأندلسية الباقية . تصوير : خليل أبو النصر



أطلال الحمامات العربيــة في طرف مدينة رندة الجنوبي .

الأسفل على حاله . ويشبه طراز هذه الصومعة طراز الصوامع الموحدية على نسق « لاخيرالدا » صومعة اشبيلية العظمى .

وتقع الكنيسة العظمى في طرف المدينة الجنوبي ، وهي تحتل حسبما تقدم موقع جامع رندة . وقد بني نصفها القديم الذي به الهيكل ، في أواخر القرن الخامس عشر ، بعد سقوط رندة بقليل ، على أنقاض الجامع ، وأدمج في هذا القسم من أطلال الجامع أربع قباب عربية صغيرة ، ركبت في سقف الكنيسة ، وهي ظاهرة وحيدة الطراز . أما القسم الآخر من الكنيسة فهو حديث البناء . وموقع الكنيسة وهي التي تحتل موقع الجامع ، في طرف المدينة اليوم ، يدل حسبما تقدم على أن مدينة رندة الأندلسية كانت تمتد الى ما بعد هذه البقعة نحو الجنوب ، اذ كان الجامع يقع في وسطها لا في نهايتها .

ويوجد ثمة حتى اليوم باب من أبواب رندة الاسلامية وهو باب المقابر « Puerta de Almocabar » وهو يقع في طرف المدينة الجنوبي الشرقي ، على مقربة من الكنيسة الكبرى ، وهو ذو أربعـة عقود عربية ، ويوصف بأنه أحـد الأبواب الثلاثة الرئيسية لرندة الاسلامية .

أما قصبة رندة الأندلسية ، فلم يبق منها سوى أطلال دارسة ، وتقع هذه الأطلال فوق ربوة عالية تطل على الوادي السحيق الذي تشرف عليه رندة من ناحية الجنوب تظلله الآكام العالية . وتتكون هذه الأطلال من جزء من سور رندة القديم ، وثلاث بوائك ضخمة ، وبقايا أبراج دارسة . وفي أسفل هذه المجموعة من الأطلال يقع عقد باب من أبواب القصبة . وقد كانت قصبة رندة بموقعها المنيع الوعر ، من أشهر القصبات الأندلسية . وكانت فيما يبدو تمتد الى مسافة كبيرة على حافة الوادي العميق .

والخلاصة ان رندة الأندلسية ، ما زالت تحمل طابعا أندلسيا أصيلا ، يلمسه السائح المتجول منـذ أن يضع قدمه على ترابها ■

محمد عبد الله عنان — القاهرة



تسهم الآلة في عملية تلقيح النخيل لتوفير الوقت واليد العاملة .

راجع مقال "الزراعة والآلة" تصوير : سامي لبان


راجع مقال «رندة ... مدينة أندلسية تالدة» تصوير: خليل أبو النصر